تاريخ المصريين ١٦٣

مصر والحملة الفرنسية

المستشار

محمد سعيد العشماوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



مصر والحملة الفرنسية

المستشار
محمد سعيد العشماوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

الاشراف الفنى

محمـــود الجـ

تقـــديم

يسرنى أن أقدم للقارئ العزيز هذا الكتاب عن « مصر والحملة الفرنسية » الذى كتبه المستشار محمد سعيد العشـــماوى • وهو يحمل رؤية تاريخية للثورة الفرنسية أكثر مما يحمل تاريخا للحملة الفرنسيه . فالمستشار محمد سعيد العشماوى مفكر مصرى وليس مؤرخا ، وبالتالى فلا ينبغى للقارئ أن يتوقع قراءة كتاب تاريخ مما تعود أن يقرأه ، بمعنى : تحقيق تاريخى لأحداث الحملة الفرنسية على مصر ــ وانمـــا سيقرأ رؤية مفـــكر مصرى وتأملاته للحملة الفرنسية • وهو منهج مختلف للكتابة ، ولكن له حلاوته وأهميته •

والكتـــاب على هذا النحو يتعرض لجوانب وحوادث مختلفة وقعت فى مصر ابان الحملة الفرنسية ، من واقع ما دونه شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتى (الذى يعتبر عمدته الرئيسية فى هذا الكتاب) تكون صورة للحياة الاجتماعية ، والحضـــارية ، والادارية ، قبل وأثناء وفى أعقاب الحملة الفرنسية ، مع تحليل ممتاز يربط الماضى بالحاضر ، ويكشف عن الســـلوكيات المصرية الحالية وجذورها البعيدة الضاربة فى التاريخ •

ويقدم الكتاب فى البداية عرضا لمصر قبل الحملة الفرنسية ، والوضع العام فيها ، ووصول الفرنسيين الى القاهرة بعد هزيمة المماليك فى موقعة امبابة ، ثم الترتيبات الادارية والانشاءات العلمية والحضارية التى أسسها الفرنسيون فى مصر • ويتحدث عن ثورة

المصريين على الفرنسيين ، ومحاكمة سليمان الحلبى قاتل الجـ
كليبر قائد الجيش الفرنسي بعد نابليون . كمـا يتـابع الخط
الفرنسي للمصريين منذ بدأت الحملة الفرنســـية حتى انتهائـ
ويتحدث عما أسماه بالثقافة الســمعية أو الثقافة الشــفهية ،
تعتقد بأن القول مساو للعمل ، وأن الكلام بديل عن الفعل ! ا
الثقافة التى ورثها المصريون فى الوقت الحاضر من العصر العثما
مما استخلصه من الجبرتى ، والكتاب بذلك يقدم تحليلا مـ
للمجتمع المصرى بنظرة مفكر . وهو جدير بالقراءة .

والله الموفق ..

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

مقـــــدمة

في شهر يناير ١٩٨٦ توجهت الى باريس ، تلبية لدعوة مشتركة فيما بين جامعــة الســوربون ومعهــد الشئون الدولية (Ifri) ، لالقاء محــاضرة في كل منهما . والى جانب المحاضرتين تم ترتيب جدول حافل بالــزيارات والمقـــابلات في الــكوليج دى فرانسس (College du France) ، ووزارة الخارجية ، ووزارة العدل ، والمجلس التشريعي ، وبعض المحاكم ، وكبــار الشخصيات الفكرية والعامة . هذا فضلا عن الزيارات السياحية والأنشطة الاجتماعية .

في يوم ١٠ يناير ، كان الترتيب أن أبدأ بزيارة رئيس محــكمة النقض ، ثم أحضر الجمعيــة العــامة لمستشارى محكمة استئناف باريس ، ثم أتناول طعام الغداء مع وزير العدل ورئيس مجلس الدولة .

في العاشرة صــباحا ، تــوجهت بي الســـكرتيرة المسئولة عن مرافقتي وتنفيذ البرامج المعــدة لي ، الى

مكتب رئيس محكمة النقض الفرنسية ، فى مبنى دار العدالة الفخم . وكان الرئيس هى السيدة روز • كما هو المقرر في هذه الزيارات ، كان لدى السيدة روز بيان عن سيرة حياتي ، وعن عملي ، وعن اتجاهاتي الفكرية ، وعن مؤلفاتي ، هو ما يسمى باللغة اللاتينية : Curriclum Vitae ، ويرمز اليه اختصارا بحرفى C.V . •

كانت السيدة روز ودودة ، وشغوفة بالموضوعات الدينية والفكرية التى أكتب فيها ، فدار بيننا حوار طويل ، عميق ومتشعب • عندما عرجنا على العمل القضائى طلبت أن أطلع على جداول المحكمة ، والنظام القضائى والادارى للعمل بها • وكانت دهشتي واضحة عندما تبينت أن النظام القضائى والادارى فى المحاكم المصرية ماخوذ بالنص من النظام الفرنسى : وأن جداولها ، بكل بياناتها ، ترجمة حرفية لجداول المحاكم الفرنسية وبياناتها •

كان هذا التماثل ، بل والتطابق ، بين النظام القضائى الفرنسى ، والنظام القضائى المصرى مثار حديث طويل بيننا ، داخلته تعليقات مهمة • وعلى الرغم من أن المدة المحددة للزيارة كانت ساعة واحدة ،

فقد استطالت حتى اقتربت من ساعتين • نظرت السيدة روز الى ساعتها ثم قالت لى : أنت مدعو لحضور الجمعية العامة لمستشارى محكمة استئناف باريس ، وهى تنعقد فى قاعة واسعة بالدور الأرضى من هذا المبنى (دار العدالة) فهل لديك مانع أن نتوجه سويا الى قاعة الاجتماع ، لأنى مدعوة كذلك بحكم منصبى ، وقد آزف الوقت وحان موعد وجودنا بالقاعة ؟ رحبت بذلك وسرنا سويا عبر الممرات والأبهاء والسلالم، والى جوارى سكرتيرتى الفرنسية النشطة • عند باب قاعة الاجتماع استأذنت السكرتيرة فى أن تنتظرنى بقاعة خاصة يجلس فيها المرافقون الذين ليس لهم حق حضور الاجتماع • دخلت الى القاعة مع السيدة روز .. التى سارت حتى الصف الأول ، فوجدت وزير العدل ، فعرفتنا ببعضنا ، ثم جلسنا جميعا ، وقد جعلا مجلسى فيما بينهما ، الى يمينى رئيس محكمة النقض والى يسارى وزير العدل • حان موعد انعقاد الجمعية العامة واكتمل حضور المدعوين ، فأغلق الحجاب أبواب القاعة ، وقد كانوا يرتدون أزياء رسمية يتدلى من حزام بها فى الوسط سيف ، ويضعون فى أيديهم قفازات بيضاء • وهو نفس الزى ، والنظام ، الذى كان يرتديه ويتبعه الحجاب فى المحاكم العليا بمصر حتى

أوائل الخمسينيات ، فيما عدا غطاء الرأس الذى كان طربوشا فى مصر ، وهو قبعة خاصة فى فرنسا ٠

بعد دقائق دخل المستشارون الى القاعة ، فى مقدمتهم رئيس المحكمة يتبعه الآخرون بترتيب أقدمياتهم ، وهم جميعا يرتدون أروابا حمراء لها حول الرقبة ياقة عريضة من الفرو الأبيض ، وعددهم اثنى وعشرون مستشارا ، يكونون سبع دوائر ، وللرئيس أعمال قضائية وادارية محددة ٠ جلسوا جميعا فى وضع نصف الدائرة على المنصة التى تعلو مقاعد المدعوين ٠ القى رئيس المحكمة كلمة حيا فيها الحضور، وخصنى بالتحية ، ثم تكلم عن عمل المحكمة وما أنجزته فى العام السابق ، وأعلن نظام العمل الذى اتفق عليه أعضاء الجمعية العامة ٠ من التقاليد هناك أن يلقى أحد المستشارين بحثا قانونيا فى مسألة دقيقة وحالة (أى تثور فى دوائر القانون وحلقات المجتمع) فى مدة ١٥ دقيقة ٠ وقف المستشار الذى عهد اليه بالقاء البحث ، وألقاه بنبرة علمية ، ثم وزعت علينا صور منه ، وكان عن التعديلات المطلوب ادخالها على قانون اجارة الأماكن ، ليصبح أكثر ملاءمة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة ٠

قبل القاء هذه المحاضرة مال على وزير العدل وسألنى اذا ما كنت أرغب فى القاء كلمة ، كرجل قضاء مصرى يحضر ، لأول مرة ، انعقاد الجمعية العامة لمستشارى محكمة استئناف باريس • كان فى سؤاله معنى الايحاء لى بالموافقة ، فوافقت • قام الوزير من مكانه وتقدم الى رئيس محكمة الاستئناف الذى كان يجلس على المنصة قبالتنا ، وهمس اليه بما اتفقنا عليه • بعد أن انتهت محاضرة المستشار الفرنسى قدمنى رئيس المحكمة باسمى وصفتى القضائية واتجاهاتى الفكرية ، وأشار الى مؤلفاتى وخص منها بالذكر كتابى أصول الشريعة وحصاد العقل ، » وكنت آنذاك قد كتبت أغلب فصول كتابى الاسلام السياسى ، ولم يكن قد نشر بعد ، وهو الكتاب الذى ترجم الى الفرنسية تحت عنوان موح وقوى التعبير :

L'Islamism Contre L'Islam

أى : الأيديولوجيا (الاسلامية) ضد الاسلام (العقيدة) •

وقفت مكانى وارتجلت كلمة كان نص فقراتها الأخيرة ما يلى :

» حينما وجهت خطابى اليكم ، فقد كان ذلك بوصفى ابن مصر ، ونبت الانسانية ، ومجلى الكونية •

وهو حال يؤكد نسبتي الى روح مصر . والى كل الانسانية ، والى ذات الكونية ، فلا يجمد مفاهيمي ولا يحتجز أحكامي في نطاق العصبية أو مجال القبلية أو مدار المحلية ، تلك التي تتطرق الى التهويل فيما يتصل بالفرد وبلده ، والى التهوين مما يتعلق بالغير ووطنه . ان ذاتي ، في جوهرها ومظهرها ، تستوى على الحق والعدل والاستقامة ، حادى في ذلك قيم الحضارة المصرية القديمة ، وآية من القرآن الكريم (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) سورة النساء ٤ : ١٣٥ .

لقد كان لفرنسا دور مهم وفعال في الكشف عن حضارة مصر القديمة ، لكنها بذلك كانت ترد الدين الى مصر التي أرست بحضارتها كل حضارة ، وأسست بعلومها كل العلوم ، وناسجت بقيمها كل ضمير . وكان لفرنسا أثر واضح على النظام القضائي المصرى ، وكأنها في ذلك تعيد الى مصر الفضل الذى قدمته حضارتها الى الانسانية كلها ، من خلال الحياة المستقيمة بالحق والعدل ، فكرة ومنهجا ، مبدأ وتطبيقا .

ولئن كان من قدرى أن أفيد من كشف حضارة مصر في أفكارى وكتاباتي ، وكان من حظي أن أعمل

فى نظام قضائى عليه بصمات فرنسية ، فانى أكون من ثم تجسيدا حقيقيا للمعلم والتلميذ ، للماضى والآخذ ، للأجداد والأحفاد .

فشكرا لموقف جمع فى نفسى كل هذه المعانى الكريمة ، وطرح على روحى كل هذه الومضات السامية » .

انتهت الجلسة ، وخرجنا من القاعة ، وقد حان موعد الغداء فقال لى وزير العدل : أظن أن لا مانع لديك من أن نتوجه معا فى سيارتى الى المطعم ؟ قلت : لا بأس فى ذلك - ثم التفت الى سكرتيرتى التى جاءتنى على التو ، فور أن شاهدتنى أغادر القاعة . وطلبت منها أن تحضر بسيارتها الى المطعم فى الساعة الرابعة مساء ، لكن الوزير طلب أن أعفيها من ذلك على أن يترك لى سيارته تذهب بى أنى شئت .

توجهنا معا الى مطعم عريق وفاخر فى حى مونبارناس (مطعم لا روتونت La Rotonte) . وعلى باب المطعم قابلنا رئيس مجلس الدولة فتعارفنا ، واتجهنا جميعا الى المائدة التى كانت قد حجزت لنا فى منطقة خاصة بالمطعم .

حضر رئيس الندل (Maitre d'hotel) وقدم الينا قوائم الطعام (Menu) ، فقرأت القائمة وانتظرت حتى يقع اختيار الوزير ورئيس مجلس الدولة على ما يريدان • طلبا منى باحترام شديد أن أملى ما اخترته لطعامى من القائمة على رئيس الندل •. ومع أنهما بذلك كانا يتبعان أصول اللياقة الاجتماعية (Etiquette) التى تجعل للضيف الأولية فى ابدام طلباته الا أنى أتصور أنهما كانا كذلك يستبران غور الضيف ويتلمسان المعرفة به وتقييمه • ففى الخارج ، وفى أوروبا وأمريكا بالذات ، يوجد اتجاه للتعرف على الضيف من حركاته وسكناته ، من حديثه وألفاظه ، من طريقة الكلام وأسلوب التصرف • وهم لا يرون فى الأسلوب الذى يتبعه الفرد فى الكلام والطعام ، فى نظام السلوك وآداب المائدة ، شكليات أو مظهريات ، لكنهم يرون فى ذلك ما يفصح به الشكل عن التربية ، وما يكشف به المظهر عن التكوين ، وما يدل به التصرف عن التحضر •

طلبت من رئيس الندل سومون فيميه (سمك السالمون المدخن) كطبق أول ، ثم فيليه بقرى بالشامبينيون كطبق رئيسى (والشامبنيون هو نبات عش

الغراب ، واسمه بالانجليزية (Mashroom • قال الوزير ورئيس مجلس الدولة معا : هذا هو نظام الطعـــام الكلاسيكي (التقليدى) وسوف نطلب مثلك تماما ، وتم الأمر بذلك • ثم قدم رئيس الندل لكل منا قائمة النبيذ (وتتضمن أنواعا مختلفة من النبيذ الأحمر والوردى والأبيض) • أعدت له القائمة بهدوء ، وقلت : أنا لا أشرب النبيذ • قال المضيفان بأدب جم : وهل يضايقك أن نشرب نحن ، فمن طبيعتنـا وتقـاليدنا أن نشرب النبيذ مع الطعام ؟ قلت : أنا أعرف ذلك ولا اعتراض لى عليه • قالا : اذن وماذا تشرب ؟ قلت : مياها معدنية غير غازية : افيان • قالا : سوف نبـدأ معك بالميــاه المعدنية ونحن نأكل فواتح الشهية (وهى أنـواع من الزبد والجبن والكافيار ، والخبز الصغير المملح والمسمى Canapé (كانابيه) ان وضع عليه الجبن أو الكافيار ، أو Sali ان كان بدونهما ، وينطقــه البعض بالعربيــة ساليه والجمع ساليهات) •

بدأ الندل يضعون أمامنا الأطباق ، بهدوء شديد، وبنظام الموائد التقليدى • وطريقــة الفرنسـيين فى الطعام أن يأكلوا ببطء شديد ، ويطول الحديث الجاد والمتنوع أثناء ذلك ، يحدد مستواه ثقافة الجلساء •

بادرني وزير العدل بسؤال قاله بالانجليزية :
How did you escape the distruction of your totalitarian culture ?

وترجمته : كيف استطعت الافلات من الأثر التدميرى (على الشخصية) لثقافتكم الشمولية ؟ قلت : لقد سئلت هذا السؤال عدة مرات فى مصر وفى الولايات المتحدة ، وفى فرنسا . فما الذى تقصده تحديدا بالسؤال ؟ قال : انك تتكلم عن حضارة مصر القديمة باحترام واجلال ، وتتحدث عن كشف الفرنسيين عن هذه الحضارة دون أن تشعر بخجل من ذلك أو عار ، وتشير الى الأثر الفرنسى على النظام القضائى المصرى بوضوح وصراحة لا مرارة فيها ولا تهرب منها !! وهذا الذى شاهدناه فيك وسمعناه منك يختلف تماما عما يحدث من غالبية المصريين ، وخاصة فى الوقت الحالى ، اذ يعرضون عن حضارة مصر القديمة تماما ، ويرون أنها كفر ووثنية ، وأن فى حقيقة اكتشافها واعادة بعثها آثارا سيئة على الدين ، وبالذات على اليهودية والمسيحية والاسلام . كما أن هؤلاء الذين يجحدون فضل الحضارة المصرية القديمة ينكرون وجود بصمة فرنسية على النظام القضائى المصرى، وحتى ان اعترفوا بذلك مكرهين ، فانهم يدعون أن هذه البصمة أساءت

الى القــوانين واضرت بالعــــدالة ولم تنفــع المجتمع ولا خدمت الناس !!

قلت : هذا موضوع طويل ومركب • وأبدأ بانى لا أعرف تماما كيف حــدث أن أفلت من الأثر المــدمر للثقافة الشموليــة ، لكنى أتصــور أن ذلك وقع نتيجة لطبيعتي الخاصة التى طفرت بهــا الكونيــة فى بواكير الشباب ، وساعد على ذلك اتجاهاتى المعرفية والثقافية والفنية ، فصيرتنى الى حالة خاصة يحيا فيها الانسان الكونى بالصدق ، ويكون صديقا فيما يفعل ويقول ؛ واذ ذاك يعرف أن الكون كله هو بيته ، وأن الانسانية جمعــاء هى أسرته ، وأن الحضــــارات المختلفــة هى اجتهاداته التى يطرق بها أبواب الأبدية ، وأن الحيوات المتباينة هى سعيه المتواصل لكى يطوى الكل فى ذاته •

عندما يصل الانسان الى حال الكونية ذاك ، فانه لا يشعر بأى خجل من قول الحقيقة ، بل يكون الخجــل كل الخجل فى انكارها أو تحريفها ، ولا يلحق به عارٌ أو تشينه المعرة من تقــدير أعمال الغــير ، لأنه يكــون بكونيته أسمى وأرفع من الشعور بالدونية الذى يعتمل فى كيان من ترهقه ضآلته أمام أناس آخرين ، أو فى مواقف خاصة ، أو ازاء حقيقة تضع منه وتسفل به •

وإذا ما تجاوزنا هذه الوضعية الى حال الكونية ، فان عدم الاعتراف بالحقيقة قد يكون نتيجة لتصرف من يجهل أنه يجهل ، فيعيش بالجهل المركب ، ويفقأ عينيه كى لا يرى الحق ، ويصم أذنيه حتى لا يسمع الصواب، ويبتر لسانه لئلا ينطق بالصدق ٠

ومن يدرس حضارة مصر القديمة ، دراسة واعية مخلصة ، بغير أفكار مسبقة أو أحكام منقولة ، فانه يتأكد أنها حضارة دينية وعلمية وخلقية ، وأن البعض شوهها عن عمد أو عن جهل ، خاصة وقد ظلت خافية على الناس بعد أن ماتت لغتها وغربت معانيها ٠ حتى اذا ما أعاد الفرنسيون اكتشافها ، واستنطقوا كتاباتها، بدأت تظهر معانيها الحقيقية ، وعظمتها الكونية ، وطبيعتها الانسانية ٠ انها أول اجتهادات البشرية ، وأعظم حلقة فى حلقات التاريخ الانسانى ٠ والاقرار بذلك عرفان من الانسان بذاته وسعيه وجهده وهدفه ٠

أما عن أثر النظام القانونى والقضائى الفرنسى على النظام القانونى والقضائى المصرى ، فلا ينكره الا مكابر عليل ، كمن ينكر نور الشمس من رمد أو يجحد عذوبة الماء من مرض ٠ غير أنى أرى أن ذلك الأثر هو تطبيق لقانون الحياة الذى يفرض على كل جيل

أن يساعد الجيل الذى يليه • ففى كتابى «روح العدالة» (١٩٨٢) أثبت بالأدلة القاطعة أن القانون المصرى تأثر بالقانون الفرنسى الذى كان قد تأثر بالقانون الرومانى ، فى حين أن هذا القانون (الرومانى) كان قد تأثر بالفكر المصرى القديم عن العدالة والحق ، بل ونقل كثيرا من معانيها وألفاظها • فالمسألة من ثم تاريخ واحد طويل يتسلسل فى حلقات ، كل منها تفضى الى الأخرى ، وهكذا •

سكت الوزير متأملا بينما قال رئيس مجلس الدولة : ولكن هذا الفهم الذى ذكرته وشرحته هو مقلوب ومعكوس الفكر الشمولى الذى يسود فى منطقتكم ، وخاصة هذه السنوات •

قلت : ان الفكر الشمولى الذى نعيش فيه صار منذ فترة طويلة فكرا أيديولوجيا • وفى الأيديولوجيا لا توجد حقائق بل شعارات ، ولا يوجد تاريخ ، لأنها (الأيديولوجيا) تلغى ما قبلها ، وتنكر ما حولها ، وتغمض عما بعدها ، فتعيش فى حالة من الوهم ، مصطنعة ومفتعلة ، خارج نطاق الزمان والمكان ، وبعيدا عن مجال الحركة الفعالة والمنطق السوى •

قال وزير العدل : عندما يصدر هـذا الكلام من شخص مراقب ، غريب عن منطقتكم ، فانه يكون أمرا مقبولا ، لكن الغرابة أن يصدر منك أنت ، وأنت ابن ثقافة شمولية تفهم وتعمل على الضـد من كل ما تفهم وتقول أنت .

قلت : أعتقد أني أقول الحق والصدق الذى لابد أن نقوله جميعا .

قال الوزير : هذا بالضبط هو الذى يجعلك مخالفا للنمط العادى والنموذج الشائع فى ثقافتكم الشمولية، وهو ما دعاني الى أن أسألك عن السبب الذى أدى بك الى أن تفلت من أثرها المدمر على الشخصية والعقلية .

أضاف رئيس مجلس الدولة : ثقافتكم الشمولية ، بما تنطوى عليه من أيديولوجية معتقدية ، تؤدى الى انشطار العقل وانكسار القول ، فلا يكون ثم اعتراف بالحقيقة ، ولا يكون القول بالتالى صادقا أو واضحا .

قلت : كما ذكرت من قبل ، لقـد أفلت من الأثر المدمر للثقافة الشمولية بطبيعتى الخاصة ، وثقـافتى الانسانية .

قال الوزير : لكن ذلك يجعلك مغتربا (Alien) في قومك !

قلت : لكنه يجعلني مقتربا من ذاتي •

قال رئيس مجلس الدولة : وهـل يغنيك هـذا الاقتراب عن ذاك الاغتراب •

قلت : هو يغني عندما يدركه الانسان ويقصده ، ذلك أنه يفضي الى توحد في الذات ، يجعل المرء في صميم الكونية وحقيق الانسانية وجميع الصدقية •

قال الاثنان معا : لكنها ولابد أن تكون حياة شاقة مرهقة •

قلت : على العكس ، انها حياة راقية ممتعة • وهل يمكن أن يوجد أرقى من الحياة في الكونية ، وأسمى من الوجود بالانسانية ، وأجدى من العيش بالصدقية ؟

قال الوزير : أرى أنك محق فيما تعتقد وفيما تقول •

قال رئيس مجلس الدولة : وفي تقديري أنك سوف تظل على ما أنت عليه •

قلت : هذا قرارى الذى أخذته بنفسى ولنفسى ، خاصة عندما وعيت أثر الطفرة الكونية على طبيعتى ، فصرت أبشر بالانسان الكونى وأقدم نفسى مثلا له ومثالا عليه ٠

قالا معا : نرجو لك التوفيق ، وقد أسعدنا بلا شك لقاؤنا بك وحديثنا معك ٠

كان الوقت قد وصل بنا الى الخامسة مساء ، فشرعنا في الانصراف ، وحياني كل منهما بحرارة ٠

ركبت سيارة الوزير ، وكنت أعتزم التوجه الى غاب بولونيا خارج باريس ، لكنى طلبت من السائق أن يذهب بى الى الفندق ، حيث جلست في حجرتى ، وحدى ، لكنى أضم في هذه الوحدة جماع الكونية والانسانية والصدقية ٠ وظللت أردد وأنا أجاهر وأخافت : بماذا ينتفع الانسان اذا كسب العالم كله وخسر نفسه ؟ وماذا يعطى الانسان فداء عن نفسه ؟!

★★★

ان عهدى مع الصدقية ، وحياتي بها ، هـو الذى دفعنى الى أن أكتب هذه الدراسة عن « مصر والحملة الفرنسية » ، لعلها تكون سبيلا ، ولو لبعض النـاس ، لكى يعرفوا الحقيقة خالصة ، ويعملوا بها ولها ، مهما أثقلت عليهم ظروف معيشة زائفة ، تنكر الحق وترفض الصدق وتجحد الصواب .

القاهرة فى ١٢ ابريل ١٩٩٩

مصر قبل الحملة الفرنسية

التاريخ ، على ما نفهمه حالا (حاليا) ، معنى مستجد ومستحدث من لفظ التاريخ ، ويعنى به تعريف الوقت • وفى كتب اللغة أن أصـــل اللفظ من الارخ ، وهو ولد البقرة الوحشية ، وفى قول آخر أنه ولد البقرة الصغيرة • وفى هذا المعنى قال الشاعر :

مسجد ، لا تزال تهوى اليه

ام أرخ ، قناعها متراخى

وقال أمية بن أبى الصلت (المعاصر للنبى ﷺ) :

تبيت الليل حانية عليـــه

كما (يتقبل) الأرخ الأطوم

ومن الأرخ أخذت العرب معنى التأريخ ، بما يفيد ابتداء الحدث أو الأمر أو الشيء (لســان العرب •• مادة : أرخ) •

وقد تطور معنى اللفظ فصار مما يفيده « جملة الأحداث والأحوال التي يمر بها كائن ما . ويصدق بذلك على الفرد والمجتمع والظواهر الطبيعية ، ونحوها » ، وكذلك ، فهو يعنى العلم الذى يرمى الى تسجيل تلك الأحوال ودراستها (المعجم العربى الأساسى ـ لاروس ـ مادة : أرخ) .

والتاريخ ، بالمعنى الذى تطور اليه اللفظ ، صار عماد الاستعمال حالا (حاليا) ، يعد فى المفهوم العلمى الصحيح ، أمرا أساسيا ، وضرورة لا معدى عنها ، لفهم حقيقة وطبيعة أى فرد أو مجتمع أو ظاهرة .. فبدون التاريخ يبدو كل من هؤلاء كما اللقيط الذى لا يعرف أبواه ، ومن ثم يمكن أن يقول فيه أى شخص أى شيء . أما بالتاريخ ، فانه يمكن معرفة أصول الشخص ، وأصول وجذور أسباب الأحداث والأحوال ، بصورة أدنى ما تكون الى الصحة وأقرب ما يمكن الى الحقيقة .

ونظرا لأن هذا المفهوم الصحيح هو الذى يؤدى الى فهم ماضى الأمم ، والوعى بحقائق حاضرها ، والتوقع الممكن لما يحتمل أن يحدث فى مستقبلها ، فان دراسة

تاريخ مصر القريب ، يكون ضرورة وواجبا ، حتى نقطع الشكوك التى نضرب فيها ، باليقين الثابت فى بطون الكتب ، ولكى ما نبدد الاشاعات التى تنبنى عليها ثقافتنا السمعية الشفاهية بحقيق العلم وصحيح الوقائع ٠

من هذا القصد ، يجرى تقديم عرض للجوانب والحوادث المختلفة التى وقعت فى مصر ابان الحملة الفرنسية ، والتى دونها شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتى ٠

فلقد غزت السلطنة العثمانية مصر سنة ١٥١٧ وحولتها الى ولاية عثمانية ، يحكمها وال عثمانى معين من قبل السلطنة ، مع بقاء الحكم فى الحقيقة والواقع فى يد المماليك الذين كانوا يجلبون عبيدا من بلاد التركستان وشركسيا والشيشان وغيرها ٠ وكان لهؤلاء المماليك كلمة مسموعة ونافذة الى جانب الوالى ، بل وعليه ٠ ومن أهم هؤلاء المماليك على بك الكبير (١٧٦٨ ــ ١٧٧٣) الذى أعلن الاستقلال ونادى بنفسه سلطانا ٠ وقد أهملت شئون البلاد ومرافقها الكبرى أثناء الحكم العثمانى اهمالا تاما ، حتى أناخ الفقر وضرب الجهل ورزخ الضعف، مما أدى الى سقوط

مصر في يد الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت، فيما يعرف، باسم الحملة الفرنسية (١٧٩٧ ـ ١٨٠١) والتي يحدد الجبرتي فترتها فيقول « فكانت مدة الفرنساوية وتحكمهم بالديار المصرية ثلاث سنوات واحدى وعشرين يوما • فانهم ملكوا بر انبابة والجيزة وكسروا الأمراء المصرية (المماليك) • يوم السبت ١٩ صفر ١٢١٣ هـ وكان •• انخلاعهم ليلة الجمعة ٢١ صفر ١٢١٦ هـ » صفحة ١٩٩ من الكتاب الآتي بيانه •

عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤ ـ ١٨٣٥) شيخ المؤرخين ، مصرى ولد بالقاهرة • وتعلم بالأزهر •• وكان والده حسن الجبرتي من شيوخه • شهد وأرخ لمقدم الحملة الفرنسية وأحداثها ، والصراع بين الولاة العثمانيين الذى انتهى بتولية محمد على حكم مصر • وقد أرخ لهذه الأحداث في كتابيه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » و « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » • وأول الكتابين يعتبر أهم ما يكشف تاريخ مصر في القرنين ١٨ و ١٩ ، وله بهذه المثابة قيمة عظمى في بيان تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى والحضارى في تلك الفترة ، وهو الكتاب الذى نعول عليه في هذه الدراسة (طبعة مصر ١٣٢٢ هـ الجزء

الثالث) ونأخذ منه ونرجع اليه ، خاصة وأن مصنفه الجبرتى ، مصرى أزهرى ، ليس ثمة مطعن على نزاهته ودقته وأحكامه ٠

وفيما تعرضه الدراسة من هذا الكتاب ، بترتيب وتبويب ، خاص بها ، يبدو أن لغة الكتـابة فى ذلك العصر كانت قد انحطت شأن كل شىء فى مصر آنذاك ، فضلا عن وجود الفاظ ومصطلحات اختفت من قاموس التعامل المعاصر ، ومن ثم لزم قبـل أو بعـد أو أثناء عرض النص المأخوذ من الجبرتى ابداء بعض التعليق أو التصويب ، لجعل هذا النص مقبولا من القـارىء المعاصر ، مفهوما له قدر الامكان ٠

وسوف تقدم الدراسة عروضا عامة ، وخاصة ، عن الحياة الاجتماعية ، والحضارية ، والادارية ، قبل وأثناء وإثر الحملة الفرنسية ، على أن يلى ذلك تحليل واف وتعليل كاف ، يعمل على ربط الماضى بالحاضر ، وكشف كثير من التصرفات والسلوكيات المصرية ، ببيان جذورها البعيدة وحدودها القريبة ٠

الوضع العام فى مصر :

(أ) كان المماليك هم العنصر الفعال فى حكم مصر، وأظهرهم قبل الحملة الفرنسية اثنان : ابراهيم بك ومراد بك ، بالاضافة الى بعض المماليك ذوى الأهمية ، ولهم يؤرخ الجبرتى فيقول :

« الأمير مراد بك ··· هو من مماليك محمد بك أبى الدهب ··· اشتراه سنة ١١٨٢ هـ فاقام فى الرق أياما قليلة عنده (اذ كان رقيقا من قبل) ثم أعتقه ، وأمره ، وأنعم عليه بالاقطاعات الجليلة وقدمه على أقرانه ··· ولما مات على بك تزوج بسريته (أى أمته، أى عبدته) ·· وهى الست نفيسة الشهيرة الذكر بالخير ··· كان هو وابراهيم بك أكبر أمراء محمد بك (الذى انفرد بحكم مصر) ··· فلما مات محمد بك بعكا ·· رأى مماليكه (أن يكون الأمير لمصر) ابراهيم بك · ورضى الجميع بتقدمه ورياسته لوفور عقله وسكون جأشه ، فاستقر بمشيخة مصر ورياستها ونائبه نوابها ووزرائها · وعكف مراد بك على لذاته وشهواته وقضى أكثر وقته خارج المدينة ··· كل ذلك مع مشاركته لابراهيم بك فى الأحكام والنقض والابرام ».

والايراد والاصدار (المصروفات) ، وقاسمه الأموال والدواوين وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب، وأخذ في بذل الأموال وانفاقها على أمرائه وأتبــاعه ، فانضم اليه بعض أمراء ••• وأخذ الشيء من غير حقه وأعطاه لغير مستحقيه ••• (وقد) أخذ يتحجب عن الناس فعظم فيــه الهــاجس والوســواس • وكان يغلب عليه (هذا) الهاجس والوسواس وكان يغلب عـــلى طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الاقدام مع عــدم الشــجاعة • ولم يعهــد عليـــه أنه انتصر في حرب باشره أبدا ، على ما فيــه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور •• حظى عنده كل جرىء غشوم عسوف ذميم ظلوم • وتبدلت طباعهم وشرهت نفوسهم وعلت رؤوسهم ••• رجعوا (هو ومماليكه من الصعيد الى القاهرة) من غير عقــد ولا عهد ولا حرب فتعاظم في نفسه جدا ••• واستخلص غالب بلاد اقليم الجيزة لنفسه شراء ومعاوضة وغصبا ••• وأوقف الأعوان في كل جهــة يحجزون المــراكب التي تأتي من البلاد ••• يبيعون لأنفســهم ما أحبــوا ويأخذون الجمالات عــلى ما يســمحون به أو يطلقونه لأرباب الوسايط والشفاعات ••• (وقد) بقيت آلات الحرب جميعها والبارود بحــواصله والجلل والبنبــات

(البمب) حتى أخذ جميعه الفرنسيس ... فان اجتمع
عليه (شخص قوى) اعطاه ما فى يده او وعده بالخير
او وهبه ملك الغير . فما يشعر الميسور الا ولقمته قد
اختطفتها النسور ... ثم اخذ يبحث . بدواوين
الأعشار والمكوسات والبهار ويتابع لمماليكه ختم
الوصولات فتجاذب هو وابراهيم بك ذلك الايراد
وتعارضت اوراقهما ... ثم اصطلحا على ان تكون له
(مراد بك) الدواوين البحرية ولقسيمه (ابراهيم بك)
ما يرد من الأصناف الحجازية وما يضاف الى قلم البهار
وحسب فى دفاتر التجار . فانفرد كل منهما بوظيفته
وفعل بها من الاجحاف ما سطر فى صحيفته ... (وقد
أخذ مراد بك) أموالا عظيمة من غير حلها ووضعها فى
غير محلها ... فياليتها لم تزن ولم تتصدق ... وقد
كان من أعظم الأسباب فى خراب الاقليم المصرى بما
تجدد (حدث) منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور
والتهور ... » صفحة ١٧٥ ـ ١٧٧ .

(ومن المماليك) « الأمير حسن بك الجداوى ...
استقل بمن بقى بالأمراء وفعل معهم من الغرور والحمق
والشر ما أوجب لهم بغض النعيم ... » صفحة ١٨٠ ،
ومنهم « الأمير عثمان المعروف بالشرقاوى .. وعرف

بالشرقاوى لكونه تولى الشرقية ووقع منه ظلم وجبروت وصادر كثيرا من الناس فى أموالهـم » صفحة ١٨١ •

ومنهم « الأمير مصطفى بك الكبير ••• تولى الصعيد وامارة الحج عدة مرار (مرات) وكان فظا غليظا •• بخيلا شحيحا • وفى امارته على الحج ترك زيارة المدينة لخوفه من العرب وشحه بعوائدهم وقلة اعتنائه بشعائر الدين ، وانتقد ذلك على المصريين » • صفحة ١٨٢ ،

ومنهم « الأمير قائد أغا ••• وكان يلقب ••• بقائد نار ، لظلمه وتجبره ••• أكثر عنده من الأعوان والأتباع ••• يضرب الناس ويحبسهم ويصادر أموالهم ••• استولى على كثير من حصص الاقطاع •• وكان له أخ من أقبح خلق الله فى الظلم ، اتخذ له أعوانا وأتباعا وليس عنده ما يكفيهم ، فكان يخطف كل ما مر بخطته (منطقته) ••• من قمح ولبن وشعير وغير ذلك ولا يدفع له ثمنا » صفحة ١٨٢ ، ١٨٣ •

هذه الحقائق والأوصاف الواضحة ، على ايجازها ، من الجبرتى الذى يعد أهم شاهد على عصره ، تفيد بوضوح أن مصر لم تكن لها حكومة ، ولا شريعة ، ولا نظام ، ولا عدل ، ولا أمن ، فى ذلك العهد الفاسد ؛ من حكم العثمانيين سنة ١٥١٧ حتى تاريخ بداية الحملة

الفرنسية ، وانما كان يتحكم في الناس والاموال والاعراض طغمة من المماليك ، وهم عبيد مستوردون بالشراء من بلاد بعيدة · أغلبها بلاد التتار ، فكانوا ظلمة فجرة ، أغلبهم بلا دين ولا خلق ، ولا تحضر ولا تمدين ، ولا عقلانية ولا انسانية ، فحطموا مصر وأذلوا شعبها ، وعجزوا عن الدفاع عنها أمام الحملة الفرنسية ، ففتحوا أبوابها من ثم للمستعمرين والمغامرين ، ورسبوا في الكيان الاجتماعي والتراث الشعبي مفاهيم خاطئة ومضامين فاسدة ، تدفع الى قبول الظلم والفساد والطغيان ، وتمنع أى شجاعة أو جسارة أو اقدام ، وهى مفاهيم ومضامين مازالت ممتدة فعالة في الهيئة الاجتماعية والاتجاهات الشعبية ·

(ب) وفيما يتعلق بالوضع العام في المجتمع عندما وصلته أنباء الحملة الفرنسية يؤرخ الجبرتي فيقول :

« في كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوما فيوما لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد · وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام ، واشتغالهم بما دهمهم · وأما بلاد الأرياف فانها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضا وينهب

بعضهم بعضا • وكذلك العرب غارت على الأطراف والنواحي ، وصار قطر مصر من أوله الى آخره في قتل ونهب واخافة طريق وقيام شر واغارة على الأموال وافساد المزارع ، وغير ذلك من أنواع الفساد الذى لا يحصى » صفحة ٧ •

« وكانت العلماء ••• تجتمع فى الأزهر كل يوم ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ خفراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية غيرهم » صفحة ٦ •

« واستمر بعض الناس طول الليل خارجين من مصر • البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه ، ولا يسأل أحد عن أحد ، بل كان كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه » صفحة ٩ •

« فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقفتهم العربان والفلاحون فأخذوا أمتعتهم ولباسهم وأحمالهم ، بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر عورته أو يسد جوعه • فكان ما أخذته العرب شيئا كثيرا يفوق الخصر ، بحيث ان الأموال والذخائر التي خرجت من

مصر (أى القاهرة حالا) فى تلك الليلة أضعاف ما بقى فيها بلا شك » صفحة ٩ ٠

« وربما قتلوا (العربان) من قدروا عليه أو دافع على نفسه ومتاعه وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن (أى هتكوا أعراضهن) » صفحة ١٠ ٠

« وفى كل يوم تكثر الاشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر وتختلف الناس فى الجهة التى يقصدون المجىء منها ٠ فمنهم من يقول انهم واصلون من البر الغربى ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقى ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين ٠ هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم الى فناء المصر ، بل كل من ابراهيم بك ومراد بك (الحاكمان) جمع عساكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه، ينتظر ما يفعل به، وليس ثمة قلعة ولا حصن ولا معقل ٠ وهذا من سوء التدبير واهمال أمر العدو » صفحة ٧ ٠

« فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم يارب ويا لطيف ويا رجال الله ٠

ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم . فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويامرونهم بترك ذلك ، ويقولون لهم ان الرسول والصحابة انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والصراخ والتباح ، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه » صفحة ٨ .

(جـ) أما حالة الناس عامة ، ووضع البلد وما فيه ، فيعبر عنه أصدق تعبير ما أرخه الجبرتي عن أفعال وأعمال ووقائع حدثت قبل الحملة الفرنسية ، أو بعد دخول الجيوش الفرنسية الى مصر ، وهي ذات أصل سابق وجذر ممتد من الماضي (بل والى المستقبل) :

« إنضم اليهم كثيرون من أهل البدع كجماعة العفيفي والسمان والعربي والعيسوية ، فمنهم من يتحلق بذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصائد والموالات (المواويل) . ومنهم من يقول أبياتا من بردة البوصيري ويجاوبهم آخرون ... أما العيسوية فهم جماعة من المغاربة ... يضربون بالدفوف ... ويلتوون وينتصبون ، ويرتفعون وينخفضون ... ويضربون الأرض بأرجلهم . كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة ... مع ما ينضم الى ذلك من

جمع العوام وتحلقهم بالمسجد والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت الى حسان الغلمان ·· والسعى خلفهم والافتتان بهم ، ورمى قشور اللب والمكسرات والمأكولات بالمسجد . وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه ، وسقاة الماء · فيصير المسجد (الحسينى) بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقا بالأسواق الممتهنة ··· ثم زاد على ذلك قدوم جماعة ··· من الحارات البعيدة والقريبة ··· يتكلمون بكلام محرف يظنون أنه ذكر وتوسلات يثابون عليها » صفحة ٤١ ·

« أثبتوا هلال رمضان ··· ثم ركب (المحتسب) من هناك بالموكب وأمامه المشاعل الكثيرة والطبول والزمور والتقاقير ، والمناداة بالصوم ، وخلفه عدة خيالة عارية رؤوسهم وشعورهم مرخية على أقفيتهم بشكل بشع مهول » صفحة ٤٥ ·

« أهل مصر جروا على عادتهم فى بدعهم التى كانوا عليها ، وانكمشوا عن بعضها ، واحتشموا خوفا من الفرنسيس (عندما احتلوا مصر) · فلما تدرجوا وأطلق لهم الفرنساوية القيد، ورخصوا لهم وسايروهم، رجعوا اليها ، وانهمكوا فى عمل مواليد الأضرحة التى

يرون فرضيتها ، وأنها قربة تنجيهم من المهالك وتقربهم الى الله زلفى فى المسالك • فرمحوا فى غفلاتهم مع ماهم فيه من الأسر » صفحة ٤٥ •

« • • • يعجن نخالته خبزا ، الفقراء والعميان ، يتقوتون به ، مع ما يجمعونه من الشحاذة فى طوافهم آناء الليل وأطراف النهار بالأسواق والأزقة ، وتغنيهم بالمدائح والخرافات وقراءة القرآن فى البيوت ومساطب الشوارع » صفحة ٦٤ •

« السيد على كان رجلا من البله ، وكان يمشى فى الأسواق عريانا مكشوف الرأس والسوأتين (أى من قبل ومن دبر) غالبا ، وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتئم به • • • ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى ميل الناس لأخيه ، واعتقادهم فيه ، كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله ، فحجر عليه (أى حبسه) ومنعه من الخروج من البيت وألبسه ثيابا وأظهر للناس أنه (أى الأبله) أذن له بذلك ، وأنه (أى الأبله) تولى القبطانية (أى صار قطبا ، بلغة الصوفية) • • • فأقبلت الرجال والنساء على زيارته والتبرك به ، وسماع ألفاظه ، والانصات الى تخليطاته ، وتأويلها بما فى نفوسهم • وطفق أخوه

المذكور يرغبهم ويبث لهم في كراماته ، وانه يطلع على خطرات القلوب والمغيبات ، وينطق بما في النفوس ، فانهمكوا على التردد اليه ، وقلد بعضهم بعضا . وأقبلوا عليه بالهدايا والنذور والامدادات الواسعة في كل شيء ، وخصوصا من نساء الأمراء (المماليك) الأكابر . وراج حال أخيه واتسعت أمواله ، وتنفقت سلعته . وصادت شبكته . وسمن الشيخ (الأبله) من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل البوا (الشيء) العظيم ... (ولما) مات ... دفنوه ... وعمل عليه (الأخ) مقصورة ومقاما ، وواظب عليه بالمقرئين والمداحين ... يتواجدون ويتصارخون ، ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضمونه في أعبابهم وجيوبهم » . صفحة ٨٤ .

وفي هذه الواقعة ، التي هي مثل حي واضح صريح تشير الى عقلية الناس وفهمهم الخاطيء للدين، وتهافتهم على البله والحمقى والجهال ، يورد الجبرتي من شعر بدر الحجازي أبياتا منها :

« ليتنا لم نعش الى أن رأينا
كل ذي جنة لدى الناس قطبا

علماءهم به يلوذون بل قد
اتخذوه من ذى العرش ربا
اذ نسوا الله قائلين فلانا
عن جميع الأنام يفرج كربا
واذا مات يجعلوه مزارا
وله يهرعون عجما وعربا
بعضهم قبل الضريح وبعض
عتب الباب قبلوه وتربا
هكذا المشركون تفعل مع أصنا
مهم ، تبتغى بذلك قربا »

تلك صور ، تكاد تنطق بما فيها من بساطة التعبير وسلامة القول وبراءة القصد · ومنها يظهر بوضوح وجلاء أنه لم يكن يوجد شعب بالمعنى الحقيقى ، أو مجتمع بالوصف الصحيح ، أو حكومة بالمعايير المعتبرة ، انما توجد أخلاط متباينة وأمشاج متنافرة ، وقادة طغاة مستبدون · والكل على جهالة وبطالة ، وعماء وغشومة ، وأنانية وعدوانية ·

فالناس لا تحترم المساجد ، ولا تعرف لها حرمة أو لياقة ، وانما يحولونها الى أسواق للشعوذة والتراقص ،

والتسامر والتضاحك ، والمآكل والمشرب ، واصطياد الغلمان وكثرة الهذيان • وهم يقدسون رجلا أبله عاش بينهم وهو عارى السوأتين ، يصدقون أنه صار قطبا ويقدمون اليه النذور والهدايا ، ويفسرون خطرفته على أنها منطوقات عن أحوالهم ؛ ويبنون له مقاما وضريحا • وعندما آزفت الآزفة لم يجتمعوا على قلب رجل واحد — كما يقولون — وراء قادة مفكرين مدبرين ، أو خلف عقلاء حكماء ، لكنهم يفرون كل بنفسه ، لا يمتي بأب أو بابن ، بل بنفسه وحده ، وهو الحال الذى يصوره المثل الشعبي الدارج « ان جالك الطوفان حط ولدك تحت رجليك » • والقادة المحاربون يقعدون في انتظار هجوم الأعداء دون أن يعرفوا عنهم شيئا أو يحاولوا التجسس عليهم أو تعويق تقدمهم •

في هذا الحطام الاجتماعي والركام الشعبي سقطت مصر في ثلاثة أرباع ساعة ، وفي ذلك يقول الجبرتي : « الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم في الحروب (أى بالتنظيم العسكرى المعهود في الحروب) وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالمعسكر من خلفه وأمامه ، ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية •• (أى أطلق من البنادق الآلية)

والمدافع ... بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع الساعة ، ثم كانت ... الهزيمة على العسكر الغربى (فى منطقة امبابة) ، فغرق الكثير من الخيالة فى البحر (فى نهر النيل أثناء عبورهم الى القاهرة) لاحاطة العدو بهم وظلام الدنيا . والبعض وقع أسيرا فى أيدى الفرنسيس (الذين) ملكوا المتاريس . وفر مراد بك ومن معه .. » صفحة ٨ .

وهكذا ، قضى الأمر وسقطت مصر !

الفرنسيون فى مصر

بعد هزيمة المماليك فى موقعة امبابة ، فر مراد بك (أحد الحاكمين) الى الصعيد بينما فر ابراهيم بك (ثانى الحاكمين) الى بلاد الشام ، وصارت مصر قطرا مفتوحا أمام الفرنسيين .

الفرنسيون فى مصر :

(أ) عما حدث فى هذا اليوم ، وليلته ، واليوم التالى ، يقول الجبرتى :

« كانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة ، جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابه (حدث) بعضه فى تواريخ المتقدمين . فما (فمن) رأى (ليس) كمن سمع . ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون (أى الناس) لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه . ورجع الكثير من

الفارين وهم في أسوأ حال من العرى والفزع ، فتبين أن الافرنج (الفرنسيون) لم يعدو (يعبروا) الى البر الشرقى ··· فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا ، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة الى الافرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم ، وأرسلوها صحبة شخص مغربي يعرف لغتهم (الفرنسية) وآخر صحبته ، فغابا وعادا فأخبرا انهما قابلا كبير القوم (نابليون) ··· فقال ··· وأين عظماؤكم ومشايخكم؟ ولم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ··· وكتبوا (الفرنسيون) لهم ورقة ··· مضمونها ··· خطابا لأهل مصر : اننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية ، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا الا بقصد ازالة المماليك الذين يستعملون (يعاملون) الفرنساوية بالذل والاحتقار ، وأخذ مال التجار ومال السلطان

ولما حضرنا الى البر الغربى (منطقة امبابة) خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم ، ونحن فى طلبهم حتى لم (لن) يبق أحد منهم بالقطر المصرى · وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية (أى الشعب) الذى كان

يعد رعية عثمانية) فيكونون مطمئنين وفى مساكنهم مرتاحين ... ثم قال لهم (للرسولين) . لابد أن المشايخ والشربجية (الشوربجية وهم المسئولون عن الأموال) يأتون الينا لنرتب ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء ، يدبرون الأمور . ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس . وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون الى الجيزة (حيث الفرنسيون) فتلقاهم (نابليون) وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقال : لأى شىء يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور (وسوف) نعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية واجراء (تطبيق) الشريعة .. » صفحة ١٠ .

وفى هذا الوقت ، يقول الجبرتى « اجتمعت .. أوباش الناس ونهبوا بيت ابراهيم بك ومراد بك ... وأحرقوهما . ونهبوا أيضا عدة بيوت من بيوت الأمراء (المماليك) وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك ، وباعوه بأبخس الأثمان » صفحة ١٠ .

بعد يومين « عدت (عبرت) الفرنساوية الى بر مصر (البر الغربى) وسكن بونابارته بيت محمد بك الألفى (وهو من المماليك) بالأزبكية » صفحة ١١ .

« ولم يدخل المدينة الا القليل منهم ومشوا فى الأسواق من غير سلاح ولا تعديل (أى عنف) ، صاروا أيضا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون اليه بأغلى ثمن ، فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريال فرانسه (فرنسى) ، ويأخذ البيضة بنصف فضة ، قياسا على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم . فلما رأى منهم العامة ذاك أنسوا بهم واطمأنوا لهم ، وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك ، مثل السكر والصابون والدخان والبن ، وصاروا يبيعون عليهم (لهم) بما أحبوا من الأسعار (أى رفعوا أسعار السلع المبيعة بما يشاءون) . وفتح غالب السوقة (الأسواق) الحوانيت والقهاوى . » صفحة ١١ .

(ب) وفى وصف الفرنسيين : يقول الجبرتى قبل أن يشرح بالتفصيل محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر ، القائد الذى خلف نابليون عندما سافر الى فرنسا .

« وانقضت الحكومة (المحاكمة) على ذلك .... (و) رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها ، لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة (الحكم

القضائی) . ولما فيها من ضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة (الفرنسيون) الذين يحكمون العقل ... وقد تجاری (اجترأ) على كبيرهم ... رجل أفاقی (آفاق) أهوج (هو سليمان الحلبی) وغدره (أی قتله) وقبضوا عليه وقرروه ، ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار ... بل رتبوا حكومة (قضاء) ومحاكمة ... ثم نفذوا الحكم بما اقتضاه التحكيم (حكم به القضاء) ؛ بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ، ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس ، وتجاريهم (اجتراءهم) على هدم البنية الانسانية (ازهاق روح الانسان) بمجرد (لمجرد اشباع) شهواتهم الحيوانية » صفحة ١٢٢ .

« ومن طبعهم (الفرنسيون) فی الشرب أنهم يتعاطون لحد النشوة وترويح النفس ، فان زادوا عن ذلك الحد لا يخرجون من منازلهم . ومن سكر وخرج الى السوق ووقع منه أمر مخل عاقبوه وعزروه . » صفحة ٤٦ .

« قال الخازندار : ان الفرنساوية لا يحبون الكذب ولم يعهد عليهم (ذلك) ... فقال بعض

الحاضرين بما (لا) يكذب (الا) الحشاشون ، والفرنساوية لا ياكلون الحشيش » صفحة ١٦٦ .

« وقال الخازندار عن الفرنسيس : لا يخطر فى بالكم قلة عساكرهم ، فانهم على قلب رجل واحد » صفحة ٦٦ .

وفى حديث لمينو القائد الذى خلف كليبر بعد قتله « كل واحد منكم رأى المحبة والاخوة التى كانت موجودة ما بين الفرنساوية وما بين أهل الديار المصرية ، فقد كان الجيش (الفرنسى) والأهل المذكورون مثل الرعية الواحدة (الجماعة الواحدة)» صفحة ١٩٥ .

« ثم ان عساكرهم صارت تدخل المدينة شيئا فشيئا حتى امتلأت منها الطرقات وسكنوا فى البيوت ولكن لم يشوشوا على أحد . ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها . ففجر السوقة وصغروا أقراص الخبز وطبخوه (عجنوه) بترابه . وفتح الناس عدة دكاكين بجوار مساكنهم يبيعون فيها أصناف المأكولات مثل الفطير والكمك والسمك المقلى واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك . وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة وخمامير (خمارات) وقهاوى .. وفتح

بعض الافرنج البلديين (المقيمون فى مصر) بيــوتا تصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة عــلى طرائقهم فى بلادهم فيشترى الأغنام والدجاج والخضارات (الخضار) والأسماك والعسل والسكر وجميع اللوازم ، ويطبخه الطباخــون ، ويصـــنعون أنــواع الأطعمة والحلاوات (الحلوى) ويعمـــل (يضـــع) عــلى بابه علامة لذلك يعرفونها بينهم ، فاذا مرت طائفة (من الفرنسيين) بذلك المكان تريد الأكل دخلوا الى ذلك المكان ، وهــو يشتمل على عدة مجالس دون وأعلى (أماكن تحت وفوق)، وفى وسطه دكة من الخشب وهى الخوان (المنضــدة) التى يوضع عليها الطعام وحولها كراسى، فيجلسون عليها (اليها) ويأتيهم الفراشون (الندل أو الخدم) بالطعام على قوانينهم (نظمهم) فيأكلون ويشربون على نســق (نظام) لا يتعدونه . وبعــد فراغ حاجتهــم يدفعون ما وجب عليهــم من غــير نقص ولا زيادة ، ويذهبــون لحالهم » صفحة ١٢ .

● مما سلف عرضه يظهر ما يلى :

١ ــ أن حكام مصر من المماليك سارعوا بالهروب من الساحة فور هزيمة جناحهم فى الســاحل الغربى ،

الجيزة . بقيادة الطاغية مراد بك . وبهذا تركوا المصريين للمجهول ، دون أى دفاع عنهم او أى ترتيب لهم •

٢ ـ ضربت على المصريين سلبية شديدة ، فلا قادة لهم ، ولا زعماء منهم ، ولا رياسة فيهم ، ولا جماعة مستنيرة (انتلليجنسيا (Intellegentia) ترسم لهم ما ينبغى عمله ، وتبادر الى اتخاذ خطوات أو قرارات • وبهذا قعد الشعب والمشايخ ينتظرون ما يفعله فيهم الجيش الغازى •

٣ ـ وقد خشى كبار المشايخ على أنفسهم ، فاختبأوا أو فروا ، ولم يفعلوا أى شىء ، وانما اتجه نفر من المغمورين ، وربما المغامرين ، لملاقاة قائد الجيش الغازى الذى استفسر منهما عن وضعيتهم ، ولما علم أنهم ليسوا الرؤساء الكبار ، طلب مقابلة هؤلاء ، بعد أن أطعمهم وأعطى الشعب أمانا •

٤ ـ عبر قائد جيش الفرنسيين الغزاة (نابليون بونابرت) عن أهدافهم فى أنها ازالة المماليك ، وترتيب ديوان منتخب لحكم البلاد ، وتطبيق الشريعة •

وحقيقة فان المماليك كانوا طغاة مستبدين ، يجترئون على حيوات الناس وأموال المصريين وأعراضهم ،

لكنه كان من الأليق والأصوب ـ في معيار التاريخ وميزان الشعوب ـ أن يعمل المصريون على وقف ظلمهم ومنع اجترائهم ، ولو ضحوا بأنفسهم ، التي كانت تذهب هباء لأى نزوة لمملوك . كما انها كانت مع وجود هذا الظلم والطغيان ، عبثا لا قيمة له ولا معنى فيه .

كذلك فان المصريين لم يطالبوا بتطبيق الشريعة وهم مسلمون ، من حكامهم المماليك وهم مسلمون كذلك ، وانما أعلن ضرورة تطبيقها الجيش الفرنسي . بلسان واقرار قائده .

والى جانب ذلك ، فانه لأول مرة ، في التاريخ ، يسمع المصريون عن ترتيب ديوان منتخب منهم لمباشرة شئون الحكم والاشراف على ادارة أمور البلاد ، دون أن يكافحوا في سبيل ذلك ، لا مع المماليك ، ولا مع السلطنة العثمانية ، أو غيرها .

٥ ـ دخل الجنود الفرنسيون الى القاهرة ، في جماعات صغيرة ، دون سلاح وبغير عدوان ، فتبسطوا مع الناس وتضاحكوا معهم ، واشتروا الأشياء بأسعار أغلى من قيمتها ، مقدرين هذه القيمة حسب أسعار بلادهم . وهو أمر عجب له المصريون ، وأظهر الجبرتى

اندهاشه ، لأنهم اعتادوا أن يخطف الجنود والحكام ممتلكاتهم وأموالهم وبضائعهم ، غصبا وكرها ، دون دفع أى ثمن .

٦ ـ استغل بعض المصريين تصرف الفرنسيين فلم يسلكوا بالأصول ، ولم يتبعوا الأمانة فى البيع ، بل غالوا فى أسعار ما كانوا يبيعونه لهم ، وغشوا فى صناعة ما يعرضونه عليهم (وهو أمر لم يزل متبعا حتى اليوم) .

٧ ـ لاحظ الجبرتى ما قرره من أن الفرنسيين يتصرفون على مقتضى العقل، لأنه كان يعرف أن المماليك وجنودهم يتصرفون بنزق وخفة وحمق وطيش .

٨ ـ وصف الجبرتى ، المصرى الأزهرى الحكيم ، سليمان الحلبى بأنه أحمق أهوج ، ولم يقل عنه انه بطل مجاهد .

٩ ـ قارن الجبرتى تصرفات الفرنسيين بتصرفات غيرهم، من الترك وجنودهم، فقال عن هؤلاء انهم أوباش العثمانيين الذين يدعون الاسلام ، وهم يقتلون الناس اجتراء لمجرد الشهوة الحيوانية باغتيال أرواح البشر .

١٠ ـ عندما سكن الفرنسيون الى جوار المصريين لم يشوشروا عليهم ، أى لم يضايقوهم ولم يسيئوا اليهم ولم يخرجوهم من ديارهم ، على عكس ما كان يفعل وماسوف يفعل معهم جنود العثمانيين •

١١ ـ كان تقدير من تعامل من المصريين مع الفرنسيين أن هؤلاء لا يكذبون ، وقد علل ذلك بأنهم ليسوا حشاشين ، لأنهم لا يتعاطون الحشيش • ويقول الجبرتى انهم يشربون فى اعتدال ، واذا خرج أحدهم عن حد الاعتدال عوقب •

١٢ ـ قامت بين المصريين والفرنسيين (الغزاة) محبة ومودة ، فصاروا كأنهم شعب واحد أو جماعة واحدة •

١٣ ـ أقيمت للفرنسيين أماكن خاصة لطعامهم وشرابهم ، على النمط والنسق الفرنسى ، كانت بأوضاعها وأوصافها غريبة عن المصريين ، وهى التى صارت فيما بعد ، الأسلوب العادى والنظام السائد ، عالميا ، فى كل المطاعم والمقاهى •

ويؤكد الجبرتى ، ما يكرر دهشته ، من أن الفرنسيين كانوا على الدوام يدفعون ثمن ما يأكلون أو يشربون ثم يذهبون لحالهم ، دون ضجيج أو عدوان •

الترتيبات الادارية والانشاءات المادية :

استحدث الفرنسيون فى ادارة البلاد ما يلى :

١ ــ انشاء ديوان من عشرة من المشايخ ، منتخبين ، للاشراف على حكم البلاد ، فيما يعبر عنه الجبرتى بأنه « فصل الحكومات » • وبمجرد تحديد أعضاء المجلس ، تم تعيين : أغا مستحفظان (الشئون المالية) ، ووال للشرطة ، وأمين احتساب (أى المحتسب) • أى انه تشكلت حكومة ، بالمعنى المفهوم حالا (حاليا) •

وفى ذلك يقول الجبرتى ، ان أرباب (أى أعضاء) الديوان « كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك ، فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون الا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم ، وأن المختارين للحكم (هم) من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم » صفحة ١١ •

٢ ــ انشاء المجمع العلمى المصرى •

٣ ــ الأمر بانارة المدينة ونظافتها « نادوا بوقود (ايقاد) قناديل سهارى بالطرق والأسواق » وبضرورة

النظافة » وأن يلازموا (الناس) الكنس والرش وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات» ص ٢٠ •

٤ ــ منع دفن الموتى بالمدافن الملاصقة لبيوت السكن ، أو أن يحدث الدفن بالقرب من سطح الأرض دون حفر قبر عميق « نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن كتربة الأزبكية والرويعى ، ولا يدفنون الموتى الا فى القرافات البعيدة • والذى ليس له تربة بالقرافة يدفن ميته فى ترب المماليك • واذا دفنوا يبالغون (أى يزيدون) فى تسفيل (تعميق) الحفر » ص ٢١ •

٥ ــ ضرورة النظافة ونشر المفروشات والقضاء على الروائح العفنة « ونادوا أيضا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة (الأسطح) عدة أيام ، وبتبخير البيوت بالبخورات (البخور) المذهبة للعفونة • كل ذلك للخوف من حصول الطاعون وعدوه (وعدواه) » صفحة ٢١ •

٦ ــ انشاء منتزهات وطرقات وجسور على أسلوب عصرى حديث « أحدثوا بغيط النوبى المجاورة للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة (أى بأسلوب مختلف عما عهده

المصريون) متنزهة (منتزه) يجتمع بهـا النســاء والرجال للهو ... ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون وجعلوا فى أعلاه طاحونا تدور فى الهواء عجيبة ... وشرعوا فى ردم جهات (أماكن) حول بركة الأزبكيـة ... حتى جعلـوها رحبـة ... وقطعـوا أشجارها وردموا مكانهـا بالأتربة ... عـلى خط معتـدل من الجهتين ... وجددوا القنطرة ... وكانت (قد) آلت للسقوط . وفعلوا بعدها كذلك على الوضع والنسق بحيث صار جسرا عظيما ممهـدا مسـتويا عـلى خط مستقيم من الأزبكيـة الى بولاق ... (ثم) ينقسـم بقرب بولاق قسمين : قسم الى طريق أبى العلا ، وقسم يذهب الى ... سـاحل النيل ... وأحدثوا طريقـا آخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى ... بحيث صارت طريقا ممتدة من الأزبكية الى جهة قبة النصر .. على خط مستقيم من الجهتين ... وقيدوا (رتبوا) بذلك أنفارا منهم يتعاهدون تلك الطرق ويصلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتـدال ... وفعلوا هـذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى أقرب زمن (وقت) » صفحة ٣٥ .

٧ ـ انشاء جسور على النيل . « الفرنساوية عملوا جسرا من مراكب مصطفة وعليها أخشـاب مسمرة من

بر مصر (القاهرة حالا) من قصر العينى الى الروضة ... تسير عليها الناس بدوابهم وأنفسهم الى البر الآخر .. وعملوا جسرا عظيما من الروضة الى الجيزة (وهو ما أقيم مكانه فيما بعد كوبرى عباس ثم كوبرى الجيزة) » صفحة ٥٧ .

٨ ـ تأسيس مكتبة عامة . « فى أحد البيوت وضعوا جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان (مدير) ومباشرون ، يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ... (وكانوا) يحضرون أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير (مختلف الصور) وكرات البلاد (خرائط جغرافية) والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء ، وسير الأمم ، وقصص الأنبياء ... وحوادث أممهم ، مما يحير الأفكار » صفحة ٣٥ .

٩ ـ تخصيص منطقة للبحث العلمى « أفردوا للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية ... (وزقاقا) به بيوت » صفحة ٣٥ .

١٠ ـ ادخال الأدوات التقنية فى العمل «يستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات قريبة المأخذ ، السهلة التناول ، المساعدة فى العمل وقلة الكلفة (فقد) كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف (أمام العامل) يملؤها الفاعل ترابا أو طينا أو أحجارا من مقدمها بسهولة بحيث تتسع مقدار خمسة غلقان ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة الى محل العمل فيميلها باحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة ... وكذلك كانت لهم فئوس وقزم (أداة حديدية) محكمة الصنعة ، متقنة الوضع » صفحة ٣٥ .

وقد « غرقت (مركب) فنزلت طائفة من الفرنسيس فى مراكب صغار وذهبوا اليها فى الغاطس (مكان غرقها) وأخرجوها بآلات ركبوها واصطنعوها من علم جر اثقال » صفحة ٣٩ .

١١ ـ استخدام البارود والألغام فى الهدم بأسلوب علمى « وقد كان الفرنساوية جعلوا به (بالبناء) لغما بالبارود المدفون فاشتعلت ذلك اللغم ورفع ما فوقه من الأبنية ، وطاروا فى الهواء ... وانهدم جميع ما هنالك

من الدور والمباني العظيمة والقصور المطلة على البركة، واحترق جميع البيوت التى عند بين المفارق ... والخطة (المنطقة) المعروفة بالساكت بأجمها ... وكذلك خطة الفوالة بأسرها ، وكذلك خطة الرويعى» صفحة ١٠١ .

« كانوا يهدمون ... بالبارود على طريقة اللغم فيسقط المكان بجميع أجزائه من قوة البارود وانحباسه في الأرض فيسمع له صوت عظيم ودوى » صفحة ١٧١ .

١٢ ـ انشاء مناطق لعزل القادمين الى مصر ، لمنع نقل الأمراض « عملوا كرنتيلة عند العادلية لمن يأتى من بر الشام من العسكر » صفحة ٥٨ .

١٣ ـ استحداث أسلوب نشر الأوامر ، وكتابتها ولصقها فى عدة أماكن ليراها الناس . فقد صدر أمر من سارى عسكر (قائد الحملة) يلزم المديرين بالديوان (المختصون بتنفيذها ما يصدر عن الديوان من أوامر أنهم يشهرون الأوامر وينتبهوا لها (أى يتابع تنفيذها) . صفحة ٥٥ .

١٤ ـ استحداث نظام ضبط عقود الزواج وو... الميلاد والوفاة ، وقيد المسافرين والغرباء والا...

عنهم وضبط الأملاك « ذكروا فى الديوان ... ضبط وحصر من يموت ومن يولد ... وأن يقيد (يقيض) له من يتصدى لذلك ويرتبه ويديره ... (ففى) ذلك حكما وفوائد منها ضبط الانساب ومعرفة الأعمار ... وانقضاء عدة الزواج ... » صفحة ١٤٩ . وكان بونابرت قد « أمر بأن يحرر دفتر يكتب فيه أسماء كامل الميتين (لأموات) ... (ثم طلب مينو) دفتر آخر خلافه يتحرر فيه أسماء المولودين .. (و) دفتر للزواج ... ثم يتبع ذلك بتحديد نظام غير قابل للتغيير فى ضبط الأملاك » صفحة ١٥١ . « ويلزم كل صاحب خمارة أو وكالة أو بيت الذى يدخل فى محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة أو اقليم أن يعرف عنه حالا حاكم البلد ولا يتأخر عن الاخبار الا مدة ٢٤ ساعة ، يعرفه عن مكانه الذى قدم منه وعن سبب قدومه وعن مدة سفره ومن أى طائفة ، أو ضيفا أو تاجرا أو زائرا أو غريما مخاصما ، لابد لصاحب المكان من ايضاح البيان » صفحة ٥٥ .

١٥ ـ اناطة القضاء بالمصريين بدلا من قاضى عسكر (أى الرومى الذى كان يعين رئيسا عسكريا للقضاء) . « اجتمع أرباب (أعضاء) الديوان ..

وحضر اليهم ورقة من كبير الفرنسيس قرئت عليهم مضمونها ••• أنه وجه اليكم (اليهم) أن تقترعوا (تنتخبوا) وتختاروا شيخا من العلماء يكون من أهل مصر ومولود بها يتولى القضاء ، ويقضى بالأحكام الشرعية ••• واستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضيا شرعيا من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن الكريم باتباع سبيل المؤمنين » صفحة ٧٦ •

● هذا الذى أنجزه الفرنسيون من اصلاحات ادارية وانشاءات مادية وتغييرات تقنية ، مما يلوح معه أنهم كانوا يعرفون الكثير عن مصر من قبل الحملة ، وأنهم كانوا قد غزوها ليستقروا فيها ، ولتكون مركزا لقاعدة لهم تمتد الى الشام شرقا والى الغرب غربا • لكن التساؤل الذى لابد أن يلح على الخاطر، هو أن العثمانيين غزوا مصر واحتلوها سنة ١٥١٧ رغم وجود الخلافة العباسية الثانية بها ، فلماذا أهملوها كل هذا الاهما واستعبدوا أهلها على الصورة التى سبق الالماح اليها ولم يضبطوا فيها الأعمال الادارية ولا أقاموا ا انشاءات مادية ؟! ذلك هو السؤال !

ثورة المصريين على الفرنسيين

مما سطره الجبرتي ، خير شاهد على عصره ، يظهر بوضوح أن العلاقة بين المصريين من جانب والفرنسيين من جانب آخر ، لم تكن مضطربة متعكرة ، بل على العكس فان فيما ذكره (الجبرتى) ما يفيد أن هذه العلاقة كانت حسنة طيبة ، ساعد على ذلك أن الفرنسيين ـ كما يورد الجبرتي في تاريخه ـ لم يقتلوا اعتباطا ولم يصادروا بغشومة ، ولم يعتدوا بالعنف ، وانما تعاملوا مع الناس بالحسنى ، ودفعوا أثمان ما كانوا يشترون ، وضبطوا تصرفاتهم ، وسكنوا بين المصريين فلم يشوشوا عليهم أو يسيئوا اليهم .

مادام الحال كذلك ، فما الذى عكر صفو العلاقة بين الجانبين ؟

يقول بعض الكتاب والصحفيين ان المصريين قاوموا الاحتلال الفرنسي منذ البداية ، وأنهم قاموا بثورتين ،

كما أن أحد ابناء الشام تضامن معهم فاغتال قائدهم كليبر ، جهادا منه ومغازاة (غزوا) في سبيل الله · ولما كان من الأفضل عدم القاء الأقوال المرسلة على عواهنها ، واختلاق الأحداث المفتعلة التى لا اساس لها ، فانه يكون من الصحيح والملمى ، أن يكون المرجع في البيان والوصف ما ذكره الجبرتي نصا في كتاباته ·

وأول ما يلحظ في ذلك أن الجبرتي لم يذكر وصف الثورة لما حدث من بعض أبناء القاهرة ضد الفرنسيين ، وانما أورد أحداث الواقعة الأولى دون توصيف لها أو تكييف لمعناها ، وقال في وصف أحداث الواقعة الثانية انها « حركة » ، تماما كما قيل عن الانقلاب العسكرى الذى وقع فى مصر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ انه حركة الجيش ، وكانت هذه الصفة تذكر حتى فى الأوراق الرسمية · وأهم مثل فى ذلك ، الاعلان الدستورى الصادر فى ١٧ يناير ١٩٥٣ ، والذى عنون بأنه صادر من رئيس حركة الجيش ·

(أ) عن الواقعة الأولى يقول الجبرتي « عملوا لهم (للمشايخ) ديوانا وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث وفروض القسمة الشرعية وحصص الورثة ، والآيات (القرآنية) المتعلقة بذلك فاستحسنوا ذلك ··· (و)

واحضروا (أى عقدوا) الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار . فجعلوا على الأعلى (الأكبر) ثمانية فرانسه (فرنك فرنسى) والأوسط ستة والأدنى ثلاثة . وما كان أجرته اقل من ريال فى الشهر فهـــو معافى . وأما الوكائل (الوكالات) والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج (السرج) والحوانيت . فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة (الوضـــاعة أو الفقر) والرواج والاتساع (الغنى) . وكتبوا بذلك مناشـــير (منشورات) على عادتهم . والصقوها بالمفارق والطرق، وأرسلوا منها نسخا للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى (بتحديد مستويات العقـــارات) وشرعوا فى الضبط والاحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها . ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك ، والبعض استسلم للقضاء . فانتبذ جمـــاعة من العـــامة وتناجوا فى ذلك . ووافقهم عـــلى ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عـــواقب الأمور ولم يتفـــكر أنه فى القبضة مأســـور ، فتجمع الـــكثير من الغوغاء من غـــير رئيس يســـوسهم ولا قائد يقـــودهم ، وأصبحوا ... متحزبين وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح .

وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وزعر (أزاعر) الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ، ويقولون بصياح فى الكلام : نصر الله دين الاسلام • فذهبوا الى بيت قاضى العسكر (الرومى) وتجمعوا، وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر، فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه • فرموه بالحجارة والطوب ، وطلب (حاول) الهرب فلم يمكنه الهروب • وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر ••• وفى ذلك الوقت حضر ديبوى (الفرنسى) ••• فبادروا اليه وضربوه وثخنوا جراحاته ، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه ••• فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ، ومن كل حدب ينسلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما جازاها ، ولم يتعدوا الى جهة سواها ، وهدموا مساطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجوم العدو فى وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس • واما الجهات البرانية والنواحى الفوقانية (خلاف المنطقة المحددة فيما سبق) فلم يفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع • وكذلك شذ عن

الوفاق (الاتفاق) مصر العتيقة وبولاق . وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر (الفرنسيين) ولم تزل طائفة المحاربين (لعل اللفظ تصريف من لفظ الحرابة بمعنى الخروج على الحاكم) فى الأزقة متترسين . فوصل جماعة من الفرنساويين وظهروا من ناحية المناخلى ، وبندقوا (أطلقوا البنادق) على متراس الشوائين وبه جماعة من مغاربة الفحامين فقاتلوهم حتى أجلوهم ، وعن المناخلية أزالوهم .

وعند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال ، وخرجت العامة عن الحد ، وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد ، وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب على التمام ، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، وأخذوا الودائع والأمانات ، وسبوا (من السبى ، أى أسروا) النساء والبنات ، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات ، وأكثروا من المعايب (العيوب والمساوىء) ولم يفكروا فى العواقب . وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين .

وأما الافرنج (الفرنسيون) فانهم اصبحوا مستعدين ، وعلى تلال ابرقية والقلعة واقفين ، وأحضروا جميع الآلات من المداقع والقنابر (القنابل) والبنبات (المقذوفات) ووقفوا مستحضرين (مستعدين) ، ولأمر كبيرهم (قائدهم) منتظرين ، وكان كبير الفرنسيين (بونابرت) أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ، ومل من المطاولة (التسويف) هذا والرمي متتابع من الجهتين ، وتضاعف الحال ضعفين ، حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر . فعند ذلك ضربوا (الفرنسيون) بالمدافع والبنبات (المقذوفات) على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وجرروا عليه المدافع والقنبر (القنابل) وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين ، كسوق الغورية والفحامين ، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام من هذه الآلام ، يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف .

وهربوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق . وتتابع الرمي من القلعة والكيمان ، حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور وسقطت بعض القصور ونزلت فى البيوت والوكائل وأصمت

الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم الخطب ، وزال الحال والخطب ، ركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هـذا النازل ، ويمنع عسـكره من الرمى المتراسل ، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال ، والحرب خدعة وسجال ٠

فلما ذهبـوا اليه واجتمعوا عليـه ، عاتبهـم فى التأخير ، واتهمهم فى التقصير ، فاعتذروا اليه فقبـل عذرهم ، وأمر برفع الرمى عنهم ، وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان فى المسالك ، وتسامع الناس بذلك فردت فيهـم الحـرارة ، وتسـابقوا لبعض بالبشـارة واطمأنت منهم القلوب ٠٠٠

وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لـم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين ، لـكن خانهـم المقصـود وفرغ منهـم البـارود ٠ والافرنج (الفرنسـيون) أثخنـوهم بالرمى المتتـابع بالقنـابر والمـدافع ، الى أن ٠٠٠ فرغت من عنـدهم الأدوات ، فعجـزوا ٠٠٠ وانصرفـوا ، وكف عنهـم القـوم (الفرنسيون) ٠٠٠ و ٠٠٠ دخل الافرنج المدينة ٠٠ ومروا ٠٠٠ لا يجدون لهم مانع ٠٠ ومشوا الى الغورية ٠٠٠ وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين ٠٠٠ ثم

دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول ... وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد ان كانت أشرف البقـاع ... والفرنساوية لا يمرون بها الا في النادر ، ويحترمونها عن غيرها في الباطن والظاهر ...

فركب .. المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صـارى عسكر ، (بونابرت) وقابلوه وخاطبوه في العفـو ولاطفوه ، والتمسوا منه أمانا كافيا ... (و) ترجوا عنده في اخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر بأخراجهم في الحال » صفحة ٢٥ ــ ٢٨ ٠

هذه احداث ما يطلق عليه البعض وصف الثورة ، يتضح مما بسطه الجبرتي أنه :

١ ــ قام بهـا جماعة من العامة ، ووافقهم بعض المتعممين ، الذين لم يصـفهم الجبرتي بأنهم شـيوخ ، وانضم اليهم الغوغاء والحشرات (أى سفلة الأسافل) والزعر (وهم سيئوا الخلق قليلوا الخبرة) ، بلا رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم ٠

٢ ــ والسبب فيها ان الديوان بدأ يفرض ضرائب وعوائد على العقارات والتجـارة ، بطريقـة قانونيـة

ووسيلة شرعية • مع أن المؤكد ، من الوقائع التي ذكرها الجبرتي قبل وبعد الحملة الفرنسية ، أن العثمانيين وجنودهم والمماليك وأتباعهم ، كانوا يأخذون من الناس ما يشاءون غصبا ، ويصادرون الأموال والأملاك بلا أى قانون أو سند — ويفرضون الفردة (أى مبالغ يبتزونها بلا أى أساس) ، كما كانوا يلزمون الناس بما يسمونه قروضا ، وهي غصب أموال لا ترد • فكيف لم يثر الثائرون ولم تهيج العامة على هذا الأسلوب الهمجي ، الذي كان يقع كالطامة ، بغير أى أساس قانوني ودون أى سند شرعي • فيستكينون له ويذعنون لوقعه ، لكنهم يتهيجون لفرض ضرائب بنظام محدد مقنن ، يصدر عن ديوان يتكون من مشايخهم ؟ والأغرب من ذلك أن يتهيج من هذه الضرائب العامة والغوغاء والحشرات والزعر ، وهم عادة من المعدمين الذين لا يملكون عقارا ولا يمارسون تجارة •

٣ — أرسل بونابرت رسالة الى المشايخ فلم يردوا عليه • وتحول هياج (هوجة) العامة ، ومن معهم ، الى النهب والسلب من بيوت الشوام والأروام والمسلمين ، وسبوا النساء (أى أخذوهم سبايا لهم يباح لهم مضاجعتهم) ، وأكثروا من الفحشاء •

فهل هذه ثورة ، أم انه أمر ظاهره العصيان وباطنه السلب والنهب وهتك اعراض نساء توجد في المدينة ، لم يحارب رجالهم ولم يشتركن فى حرب أو فى ضرب . فلما انتهى التخريب الى الحرب والضرب فرت العامة ، ومن ظاهرهم ، وحاق الأذى بالأبرياء من الناس !!

(ب) أشيع عن عقد صلح بين السلطنة العثمانيــة والجيش الفرنسى ليخرج هذا الجيش من مصر . ويقول الجبرتى نصا « فلما كان بعد العشـــاء دخل .. الأغا (من رجال الدولة العثمانيــة) الى مصر في مـوكب ، فحصل للناس ضجة عظيمة ... فلما كان صبح تلك الليلة عمل (عقد) ديوانا وجمع العلماء ... وأعيان الناس وكبار النصارى من الأقباط والشـوام . فلمــا تكاملوا ابرز لهم فرمانا من الـوزير ... مضــمونه (فرض) المكوس (الجمــارك) بمصر وبولاق ومصر القديمة .. والتحكير على جميع الواردات من أصناف الأقوات فيشتريها بالثمن الذى يسعره هو ... وأن .. كبير التجار ملزوم ومقيد بتحصيل .. (المال اللازم) لترحيل الفرنساوية ... وأخذ (كبير التجــار) فى تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف ، وشرعوا فى تحكير الأقوات فغلت

اسعارها وضاقت دون الناس ودهى الناس من أول أحكامهم (احكام العثمانيين) ... وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم ... فكان كل من توجه عليه مقدار .. اجتهد في تحصيله وأخرجه عن طيب قلب وانشراح خاطر ، وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية ، ويقول سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة ، كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس ... وأما الرعايا وهميج الناس من أهل مصر فانهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيس بعين الاحتقار وأنزلوهم عن درجة الاعتبار، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ، ولم يفكروا في عواقب الأمور ، ولم يتركوا معهم للصلح مكانا ، حتى أن فقهاء المكاتب (الكتاتيب) كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف حسبة وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم يلعن النصارى وأعوانهم ... وظنوا فروغ (فراغ) القضية ولم يملكوا لأنفسهم صبرا حتى تنقضي الأيام المشروطة (لمغادرة الفرنسيين أرض مصر) ، على أن ذلك لم يثمر الا الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيس وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس ... وأخذ

الفرنساوية في اهبة الرحيل ... ثم ان العثمانيين تدرجوا في دخول مصر ... وأخذوا يشاركون الناس في صناعاتهم وحرفهم ، مثل القهوجية والحمامية (أصحاب الحمامات العامة) والخياطين والمزينين وغيرهم ، فاجتمع العامة وأصحاب الحرف الى ... قائم مقام (الحاكم العثمانى) وشكوا اليه فلم يلتفت لشكواهم لأن ذلك من سنن عساكرهم وطرائقهم القبيحة ... وهيأت نساء الأمراء (المماليك) والأجناد احتياجاتهم وترتيباتهم ، وجروا على عادتهم في التغالى (المبالغة) ، ولازمت الخدم والفراشون الغدو والرواح ... وهم يتغنون برفع أصواتهم ويتجاوبون بكلام وسخريات ولعن النصارى البلدية (الأقباط) والفرنسيس ، بمرأى منهم ومسمع ... مما يحرك الحفائظ ويوغر الصدور ...

ويقال ان الفرنساوية (كان قد) أرسل اليهم بعض أصدقائهم من الانكليز وعرفوهم أن الوزير (العثمانى) اتفق مع الانكليز على الاحاطة بالفرنساوية اذا صاروا بظاهر البحر (بعد خروجهم من مصر) . فلما ... تحققوا ذلك ... تاهبوا للمقاومة والمحاربة ، وردوا آلاتهم الى القلاع ... وحصنوا

الجهات ... وأبقوا ... بها ... عساكرهم .. (و) أرسلوا الى الوزير (العثمانى) يأمرونه بالرحيل فلم يسعه الا الارتحـال ... وغالب عسـاكره مفـرقون منتشرون فى البلاد والقـرى والنـواحى لجمع المـال ومقررات مقر الفرض وظلم الفقراء .

وأما أهل مصر فانهم ... كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال ، فهاجوا ورمحوا الى أطـارف (أطـراف) البلد ، وقتلـوا أشـخاصا من الفرنساوية ... وذهبت شرذمة من عامة (عوام) أهل مصر فانتهبت الخشب وما وجدوه من نحاس وغيره حيث كان (ملك) الفرنساوية ، وخرج السيد عمر أفندى نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى وانضـم اليهم أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر ... وتبعهم كثير من عامة البلد وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى ، والقلل (أى القلة منهم) معه السلاح ... تحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات (سفلة السفلة) وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطارف (أطراف) البلد ولهم صياح وضجيج ...

فقال نصوح باشا (العثمـانى) للعـامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم ... فلمـا أظلم الليل أطلق

الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع ووالوا الضرب بالخصوص على خط (منطقة) الجمالية ، لكون المعظم (أكثر الجمع) مجتمعا بها . فلما عاين ذلك الجميع أجمع رأى الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد في تلك الليلة ، لعجزهم عن المقاومة وعدم (وجود) آلات الحرب وعزة (قلة) الأقوات ، و (لأن) القلاع بيد الفرنساوية ... فتجهز المعظم للخروج وغصت خطة الجمالية وما والاها من الأخطاط (الأحياء) بازدحام الناس ... وركب بعضهم بعضا ... ووقع للناس في هذه الليلة من الكرب والمشقة والانزعاج والخوف مالا يوصف ...

وكان كل من قبض على نصراني أو يهودي أو فرنساوي أخذه .. حيث عثمان كتخدا (العثماني) ويأخذ عليه البقشيش ، فيحبس البعض ... ويقتل البعض ظلما ... وأرسلوا فأحضروا .. المدافع الكائنة بالمطرية ، فكانوا كلما أدخلوا مدفعا أدخلوه بجمع عظيم من الأوباش والحرافيش (أصلها : حارة فيش ، أي الذى ليس له أهل ولا مكان) والأطفال ولهم صياح ونباح ..

وحضر رجل مغربي ... والتفت عليه طائفة من المغاربة البلدية (المقيمون في مصر) .. وفعل ذلك

المغربى أمورا تنكر عليه ، لأن غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه ... ومعه جمع من العوام والعسكر (العثمانيين) ... ينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب . ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعا فيما على رأسها وشعرها من الذهب ، وتتبع الناس عورات بعضهم البعض ... وأما (بعض المماليك ، فقد) .. ذهبوا ... فحارب الفرنساوية ... ولم يكن لهم بهم طاقة فطلبوا الأمان فأمنوهم وأخذوا سلاحهم وأخرجوهم حيث شاءوا ، فذهبوا أشتاتا فى الأرياف يتكففون الناس ويأوون الى المساجد الخربة ومات أكثرهم من العرى والجوع ... (و) تكلموا مع الوزير (العثمانى) ... فاعتذر اليهم بأعذار منها عدم الاستعداد للحرب وتركه معظم الجبخانة (الأسلحة) والمدافع الكبار بالعريش ، اتكالا على أمر الصلح الواقع بين الفريقين (العثمانيين والفرنسيين) وظنه غفلة الفرنساوية عما دبره عليهم مع الانكليز ... (و) ارتحل الوزير ورجع الى الشام ...

وأما مراد بك .. (فقد) استمر على صلحه مع الفرنساوية ... (و) بعد ثمانية أيام من ابتداء

الحركة ·· قطعوا (الفرنسيون) الجانب (الوارد) ··
وأحاطوا بها (البلد) احاطة السوار بالمعصم ··· (ف)
عدمت (انعدمت) الاقوات وغلت اسعار المبيعات
وعزت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات وارتفع (قل)
وجود الخبز من الأسواق ··· وصارت العساكر
(العثمانيون) ··· يخطفون ما يجدونه بأيدى الناس
من المآكل والمشارب ···

هذا والمناداة فى كل وقت بالعربى والتركى على
الناس بالجهاد ··· وجرى على الناس مالا يسطر فى
كتاب ولم يكن لأحد فى حساب ·· وتوقع الهلاك كل
لحظة والتكليف بما لا يطاق ، ومغالبة (تغلب) الجهلاء
على العقلاء ، وتطاول السفهاء على الرؤساء ، وتهور
العامة ولغط الحرافيش ·

(وحاول بعض الناس التفاهم مع الفرنسيين
لانهاء الوضع . فتحدثوا مع سارى عسكر) ···
فاعتذروا له بأن هذا من فعل ناصف باشا وكتخدا
الدولة وابراهيم بك (العثمانيون) ومن معهم ، فانهم
آثاروا الفتنة وهيجوا الرعايا ومنو الناس الأمانى
الكاذبة ، والعامة لا عقول لهم ··· فلما رجع المشايخ
·· وسمعه الانكشارية (جنود العثمانيين) والناس

قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا ... ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا (تحولوا الى) فرنسيس، مرادهم خذلان المسلمين ، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس .

وتكلم السفلة والغوغاء ... وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط العالم (النـاس) ونادى من عند نفسه : الصلح منقوض وعليكم بالجهاد من تأخر عنه ضرب عنقه ... وان غرضه هو في دوام الفتنة ، فان بها يتوصل لما يريده من النهب والسلب والتصور بصورة الامارة باجتماع الأوغاد عليه ... (و) أرسل اليهم الباشا (الوزير) والكتخدا يقولان لهم ... لا نرجع عن حربهم (حرب الفرنسيين) حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا ... وصمموا على العناد ... حتى ضاق خناق الناس من استمرار الليل والنهار . مع ما هم فيه من عدم القوت ، حتى هلكت الناس وخصوصا الفقراء والدواب ، وايذاء عسكر العثماني للرعية ، وخطفهم ما يجدونه معهم ، حتى تمنوا (المصريون) زوالهم (أى زوال العثمانيين) ورجوع الفرنسيس ... (ثم انتهى كل ذلك » بعد

ثلاثين يوما . وقع بها من الحروب والكروب والانزعاج والشتات والهياج وخراب الدور وعظائم الأمور . وقتل الرجال • ونهب الأموال وتسلط الأشرار وهتك الأحرار» صفحة ٩٥ ـ ١٠٩) •

فالذى يخلص من واقـع سرد الجبرتى . المصرى الأزهرى ، للأحداث ، أنه :

أ ـ وقـع صـلح بين العثمـانيين والفرنسـيين (بقيادة كليبر) يغادر هؤلاء بمقتضاه ارض مصر، لكن العثمانيين تواطأوا مع الانجليز على محاصرة الفرنسيين فى البحر الأبيض (المتوسط) ، وضربهم ، وهو ما اعترف به الوزير العثمانى على تقدير منه بأن ذلك يحـدث فى غفلة عن الفرنسيين ، غير أن هؤلاء علموا بذلك ، فامتنعـوا عن الخـروج من مصر ، وهيأوا أنفسـهم ومعداتهم للقتال •

٢ ـ كان الخدم والهمج يسبون الفرنسيين ، فى مواجهتهم ، بغير أى اعتبار لهم ، فكشفوا نقاب الحيـاء معهم وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية • ولم رصد الجبرتى أى واقعة تشير الى انفعال الفرنسيين من هذا التحرش والاستفزاز والرد عليه بأى صورة •

٣ ـــ قامت شرذمة من الناس ، وانضم اليهم العامة والأوباش والحشرات بنهب الخشب والنحاس وغيره من أملاك الفرنسيين ٠

٤ ـــ تجمع العامة والأوباش والحشرات (بألفاظ الجبرتي) ومعهم العصي والنبابيت وبعض الأسلحة ، فقال لهم نصوح باشا (العثماني) اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم ٠ فكأن العثمانيون هم الذين أثاروا المسألة الدينية والنعرة الطائفية ، وهو ما أدى بالعامة الى القبض على الفرنسيين واليهود والنصارى وتقديمهم الى الكتخدا العثماني ليقتل منهم من يشاء ظلما ، كما دفع بعض العامة الى قتل الفرنسيين ٠

٥ ـــ ضرب الفرنسيون المدينة بالقنابل والمدافع ، فاضطرب الناس وطلبوا الأمان ، ولما حاول شيوخهم الصلح قالوا في ذلك ان العثمانيين هم الذين هيجوا العامة وأثاروا الفتنة ٠ لكن العامة ضربوا المشايخ وأهانوهم ورفضوا الصلح ، مع أنهم بلا عدة أو عتاد ٠

٦ ـــ كان ممن يثير الفتنة رجل مغربي ، لأنه كان يجد في هذه الفتنة فرصته للتآمر على الناس ، فضلا عن النهب والسلب والخطف ، وسبي النساء ٠

٧ ــ رأى المصريون من العثمانيين وجنودهم من العسف والظلم ما جعلهم يئنون بالشكوى ويجأرون من الضغوط ، ويتمنون عودة الحكم الفرنسى .

٨ ــ لم يصف الجبرتي ما حدث بأنه ثورة ، وانما قال انها فتنة وهياج (هوجة) .

ذلك عما يقال انه ثورتان ضد الاحتلال الفرنسى، فماذا عن اغتيال كليبر ؟

محاكمة سليمان الحلبى

(حـ) يقول الجبرتى عن وقائع محاكمة سليمان الحلبى ، قاتل كليبر قائد الجيش الفرنسى بعد نابليون. ان الفرنسيين « ألفوا فى شأن ذلك أوراقا ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيتها ، وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الثلاث : الفرنساوية والتركية والعربية ... (و) رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ، ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام ، من هؤلاء الطائفة (أى الفرنسيين) الذين يحكمون العقل ... وكيف وقد تجارى (اجترأ) على كبيرهم ... رجل آفاقى (أفاق) أهوج ، وغدره (قتله) وقبضوا عليه ، وقرروه ، ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثرا عليه ووجدوا معه آلة (أداة) القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم ، بل رتبوا حكومة (قضاء) ومحاكمة ، وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام ، مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا

من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين . ثم نفذوا الحكومة (الحكم) فيهم بما اقتضاه التحكيم (الحكم) ... بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من فعل أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس وتجاريهم (اجترائهم) على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية » .

« وصورة ترجمة الأوراق المذكورة : بيان شرح الاطلاع على جسم سارى عسكر (تقرير الصفة التشريحية باللغة القضائية المتداولة حالا) ... (المحرر بواسطة ، ... باش حكيم (حكيم أول) والجرايحى (الجراح) ... الذى صار مرتبة باش جرايحى (جراح أول أو كبير الجراحين) ... انتهينا حصة ساعتين بعد الظهر (بعد الظهر بساعتين) الى بيت سارى عسكر العام في الأزبكية بمدينة مصر ... (لأننا) سمعنا دقة الطبل وغاغة الناس التى كانت تخبر (تفيد) أن سارى عسكر العام كليبر انغدر وقتل (قتل غدرا) ... فتحقق لنا أنه قد انضرب بسلاح مدبب وله حد ، وجروحاته كانت أربعة ... أول فحص (استجواب) سليمان الحلبى ... بدىء الفحص بحضور سارى عسكر مينو . والفحص صار (حدث)

بواسطة ... كاتم سر سارى عسكر العام ، ومحرر من يد (أى بسكرتارية ، كاتب التحقيق) ... سئل (المتهم) عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته ، فجاوب أنه يسمى سليمان ، ولادة بر الشام ، وعمره أربعة وعشرون سنة ، ثم صنعته كاتب عربى ، وكانت سكنته (سكناه) فى حلب ... وجاوب (أجاب) بأنه من ملة محمد (أى مسلم) » . تلى ذلك بيان تفصيلى عن استجواب المتهم ، بنفس المنهج الذى يتبع بواسطة النيابة العامة فى التحقيقات المعاصرة . وجاء ضمن هذا الاستجواب « فلما كان المتهوم (المتهم) لم يصَدق فى جواباته (اجاباته) أمر سارى عسكر أنهم يضربوه حكم عوائد البلاد فحالا انضرب (فضرب على الفور) لحد أنه طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح (يقول الحق) فارتفع عنه الضرب وانفكت له سواعده ، وصار يحكى من أول وجديد ... (فقال انه حضر من غزة لأجل أن يقتل سارى عسكر العام ... (و) أنه أرسل من طرف أغات الينكجرية (العثمانيين) وأنه حين رجع عساكر العثملى من مصر الى بر الشام أرسلوا الى حلب بطلب شخص يكون قادرا على قتل سارى عسكر العام الفرنساوى ، ووعدوا لكل من يقدر على هذه المادة (هذا القتل) أن يقدموه فى الوجاقات ويعطوه دراهم

(أى يقدموا له مكافأة نقدية ، ومرتبــة اجتماعيــة عالية) ... ولأجل ذلك تقدم هو وعرض روحه لهذا (أى عرض نفسه لواقعة قتــل كليبر) ... وأنه .. سكن في الجامع الأزهر . وهناك شاف (رأى أو قابل ثلاثة من الحلبيين ذكر اســماءهم) فبلغهم عــلى مراده (عن هدفه) فهم أشاروا عليه أنه (أن) يرجع عن ذلك لأن (لأنه غير ممــكن) .. وأنه (فى يــوم القتــل) فتبعه (أى تبع كليبر) لحين ما غدره (حتى قتله) . ثم انختــم (وقع) بامضاء ســارى مينــو (والمحقق والكاتب) ثم انقرأ (الاستجواب) على المتهوم (المتهم) ، وهو أيضا خط اسمه (أى وقع على المحضر) بالعربى ... (تلى ذلك فحص أى استجواب الثلاثة مشايخ بذات الأسلوب المتبع فى التحقيقات فى الوقت الحالى ، وقال أحدهم أن سليمان « قال انه كان مراده يغازى (قصده أن يجاهد) فى سبيل الله . وأن هذه المغازاة هى قتل واحد نصرانى ولكن ما أخبر (لم يقل) باسمه ، وأنه قصد (استهدف أن) يمنعه بقوله ان ربنا أعطى القوة للفرنساوية ، ما أحد يقــدر يمنعهم (من) حــــكم البلاد » .

بعد ذلك يورد الجبرتى القرار القــاضى بانشاء محكمة لمحاكمة المتهمين فيقول عنــه « تأسيس (المــادة

الأولى) أن ينشأ ديوان قضاة لأجل أن يشرعوا (يحاكموا) على الذين غدروا (قتلوا) سارى عسكر كليبر ... (المادة الثانية) القضاة المذكورون يكونوا تسعة وهم ... (وفيهم تعيين محام للمتهم ووكيل للادعاء ... ثم تعيين سكرتير المحكمة ، وموعد لانعقادها) » .

تلى هذا ما يقول الجبرتي انه « شرح اجتماع القضاة (أى بيان وقائع جلسات المحاكمة) ... (فقد اجتمعت المحكمة) لأجل قضاء شريعة قتل سارى عسكر .. كاتم السر .. حلف (اليمين) كما هى العوائد .. ... والسكينة (السكين) التى وجدت مع القاتل .. تبقى عند كاتم السر (كما تكون الاحراز لدى أمين السر في المحاكمات المصرية) ... (ثم بعد ذلك سماع أقوال الشهود جميعا بذات الأسلوب الذى يتم حالا فى كل المحاكمات الجنائية) ، وأعيد فحص (استجواب) سليمان الحلبى فقال . « انهم (العثمانيون) كانوا وصوه (أوصوه) أنه يروح ويسكن فى الجامع الأزهر ، وأن لا يعطى سره لأحد كليا (أبدا) بل يوحى لروحه ويكسب (يغتنم) الفرصة فى قضاء شغله (انهاء مهمته) لأنها دعوة (مهمة) تحب السر والنباهة ... وهو ما دعاهم (المقرئين الحلبيين الذين سبقت

الاشارة اليهم) لمساعدته ، لانه كان يعرفهم بليدين (بلداء) ... وأنه ما أخذ (لم يأخذ) دراهم (نقودا) من أحد في مصر لأن الأغوات (الأتراك) كانوا أعطوا له كفايته ... (ثم قال) وأما من قبل (جهة) الأربعة مشايخ (قراء) المذكورين .. أنه كان قال لهم كل شيء لأنهم من أولاد بلاده ، ثم حقق (اكد) لهم انه ناوى أن يغازى في سبيل الله ... (واضاف) أن احمد أغا (العثماني) هو من جملة أغوات الوزير .. وأنه (أى سليمان) شكا له من ابراهيم باشا متسلم (حاكم) حلب الذى كان يظلم أباه الذى يسمى الحاج محمد أمين، بياع (تاجر) السمن ، حططوه (فرضوا عليه) غرامات زائدة ، ثم وقع في عرضه .. وأن الأغا .. قال له .. انه ما (لن) يقصر ، يوصيه (أى يوصى ابراهيم باشا) في راحة أبيه (والد سليمان) ولكن بشرط أنه يروح يقتل أمير الجيوش الفرنساوية . ثم في ثالث ورابع يوم كرر عليه .. هذا السؤال ، وحالا أرسله الى ياسين أغا في غزة ، لأجل أن يعطى له مصروفه ... (تمت بعد ذلك مواجهة المتهمين ببعضهم ، بنفس الأسلوب المنصوص عليه في قانون الاجراءات الجنائية) ثم حدث استجواب لباقي المتهمين (بما يقول عنه الجبرتي فحص) ... وأثناء استجواب المتهم

مصطفى أفندى (الذى صدر الحكم ببراءته) قيل له ..
هل انه ما يعلم (من) القرآن الا مشاديده (يقصدون الأحكام الشديدة الخاصة بالقتل) فجاوب نعم ، سئل هل أن القرآن يرضى بالمغازاة ويأمر بقتل الكفرة ، فجاوب انه ما يعرف ايش هى (ما هى) المغازاة (المجاهدة) التى القرآن ينبىء عنها . سئل هل يعلم مشاديده ... فجاوب (أجاب) ... واحد اختيار مثله (عادى شأنه) ما له دعوة فى هذه الأشياء ، بل انه يعرف أن القرآن ينبي عن المغازاة وأن كل من قتل كافرا يكسب أجرا .. (ثم أضاف) وأما هو (أى المتهم مصطفى) يظن أن شرف الفرنساوية هو من شرف الاسلام ، واذا كان القرآن يقول غيره شيئا هو (فهو) ما له علاقة » .

بعد ذلك يذكر الجبرتي مرافعة الادعاء تفصيلا ، وفيها جاء « .. أهالى مصر ... كانوا محرومين شفقات ومكارم نصيرا (شفقة واكرام من ينصرهم) ، وفى دقيقة (لحظة) الذين هم أسارى ومجروحين العثملية ، هم مقبولين ومرعيين فى دور ضيوفنا (أى أنه مرضى منهم مراعى أمرهم منا) ... وسليمان الحلبى شب (شاب) مجنون (لعله يقصد طائش !) وعمره أربعة وعشرون سنة ، وقد كان بلا ريب متدنس بالخطايا

(صاحب سوابق جنائية) ... وباعتماده أن المسمى منه جهاد وتمليك الغير المؤمنين (قتل غير المؤمنين) ... (و) انما ضابط .. أقبضه (سلمه) الدراهم ... وأظن أن يليق أن تصنعوا لهم (تحكموا على المتهمين) من العذابات المادية ببلاد مصر ... (ثم يضيف الجبرتى بعد ذلك) ... « الفتوى (الحكم) الخارجة من طرف ديوان القضاة (المحكمة) ... ولكى يحكموا .. أمر سارى عسكر رينيه بحضور المتهومين (المتهمين) المذكورين قدام (أمام) القضاة ، وهم من غير قيد ولا رباط (بغير قيود كما هو الحال فى القوانين المعاصرة) بحضور وكيلهم (محاميهم) والأبواب مفتحة (مفتوحة) قدام (أمام) كامل الموجودين (أى فى علانية) ... (ثم حدث أن) .. قفل المحل (المكان) عليهم (على القضاة) لأجل يستشاروا بعضهم (للمداولة بينهم) من غير أن أحدا يسمعهم (دون حضور غريب عنهم) ... (ثم) أفتوا (أى قضوا بالأحكام) ثم ان (أى ان) هذه الفتوى الشرعية (الحكم القانونى) تكتب ... وينطبعوا (وتطبع) باللغة التركية والعربية والفرنسية (أى ينشر الحكم) ... ثم ان القضاه حطوا خط يدهم بأسمائهم (أى وقعوا) برفقة (ومعهم توقيع) كاتم السر (سكرتير المحكمة) ... ثم هذه الشريعة

والفتوى (الحكم أو الشرع) انقرت وتفسرت (قرئت وشرحت) على المذنبين ٠٠٠ » صفحة ١٢١ ـ ١٤٠ ٠

يضيف الجبرتي بعد ذلك « هذا آخر ما كتبوه فى خصوص هذه القضية رسموه وطبعوه بالحرف الواحد ، لم أغير شيئا ٠٠٠ اذ لست ممن يحرف الكلم ٠٠ (وبعد تشييع جنازة كليبر) « ٠٠ أحضروا سليمان الحلبى والثلاثة المذكورين فامضوا فيهم ما قدر عليهم ٠٠٠ » صفحة ١٤٠ ٠

« وفى يوم ٠٠٠ حضر سارى عسكر عبد الله جاك مينو وقائم مقام ٠٠ وطافوا ٠٠ وأرادوا حفر (بحث) أماكن التفتيش على السلاح ونحو ذلك ، ثم ذهبوا فشرعت المجاورون به (بالجامع الأزهر) فى نقل أمتعتهم ونقل كتبهم واخلاء الأروقة ٠٠٠وكتبوا أسماء المجاورين فى ورقة وأمروهم أن لا يبيت عندهم غريب ، ولا يؤوا اليهم (أفاقا) مطلقا ٠٠٠ ثم ان الشيخ الشرقاى والمهدى والصاوى توجهوا فى عصريتها (عصر ذلك اليوم) عند كبير الفرنسيين واستأذنوه فى قفل الجامع وتسميره (وضع المسامير على أبوابه) ، فقال بعض القبطة (القبط) الحاضرين للأشياخ (الشيوخ) هذا لا يصح ولا يتفق (أى لا يجوز) فحنق ٠٠ الشيخ

الشرقاوى · وقصد المشايخ من ذلك منع الريبة بالكلية فان الأزهر سعة ، لا يمكن الاحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو (العثمانى) من يبيت به ، واحتج بذلك على انجاز غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك · فأذن كبير الفرنسيين بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطنا (الذى فى نفسه)، فلما أصبحوا قفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات » - صفحة ١٤١ ·

الذى يستفاد مما كتبه الجبرتى نصا ـ على الرغم من اضطرابه وركاكته ـ ما يلى :

١ ـ سليمان الحلبى أفاق أهوج (بتعبير الجبرتى)، أى انه ليس بطلا وطنيا أو مجاهدا مسلما · كما تصوره بعض الروايات المختلطة ، التى تزيف الواقع وتحرف التاريخ ، وهى تركن الى ثقافة الاشاعات التى تبنى على الاشاعة الخاطئة واقعا لا أساس له ، وتقدم على الرواية المختلقة تاريخا ليس له سند ·

٢ ـ عندما رفض الفرنسيون الخروج من مصر ، بناء على اتفاق تم على ذلك مع العثمانيين ، بعدما تحقق لهم أن هؤلاء (العثمانيين) يدبرون مكيدة مع الانجليز

لمحاصرة الفرنسيين فى عرض البحر (المتوسط)
وابادتهم ، لجأ العثمانيون الى تدبير مؤامرة لاغتيال
كليبر قائد الجيش الفرنسى فى مصر •

٣ ـ توجه سليمان الحلبى الى أحد أغوات الوزير
العثمانى يشكو له من حاكم حلب الذى يضطهد والده
تاجر السمن • ويفرض عليه أموالا طائلة ، فاصطاده
الأغا ووعده بالتوسط لدى حاكم حلب لوقف اضطهاد
والده ، شريطة أن يقوم هو باغتيال كليبر قائد
الفرنسيين ، على أن يكافئه عن ذلك بعطية مالية ، فضلا
عن الوجاهة الاجتماعية التى سوف يضفيها عليه •

٤ ـ بعد الحاح قبل سليمان الحلبى ذلك ، فأعطى
قدرا من المال لتنفيذ مهمة القتل •

٥ ـ حضر سليمان الى مصر وتوجه الى الجامع
الأزهر حيث يوجد المجاورون ، وقد كان آنذاك مأوى
لأى غريب ، فقابل أربعة من أبناء بلدته ، وحادثهم فى
مهمته ، غير أنه لم يطلب منهم عونا لما يعرفه عنهم من
بلادة •

٦ ـ تتبع سليمان الحلبى كليبر حتى استطاع
قتله • وقد ضبط اثر القتل فاعترف به وأقر بأسماء

المجاورين من ابناء بلدته الذين حادثهم في واقعة اغتيال كليبر ·

٧ ـ اجرى تحقيق ، وفقا لأصول التحقيقات المرسومة في الوقت الحالي ، في قوانين الاجراءات الجنائية ، في كل البلاد المتحضرة ·

٨ ـ صدر قرار بتشكيل محكمة لمحاكمة المتهمين ، وفيها تعيين دفاع عنهم · وانعقدت المحكمة في علانية، وتم تدوين كل الاجراءات بواسطة سكرتير أو أمين سر المحكمة · وخلا القضاة للمداولة ثم أصدروا الحكم · وهي نفس الاجراءات المبينة في كل كتب الاجراءات المدنية والجنائية في المصر الحالي ·

٩ ـ أثبت في التحقيق أنه تم ضرب المتهم سليمان الحلبي ، وفقا لعوائد البلاد ، فشرع يقر بالحقيقة · في حين أن سلطات التحقيق ، في الوقت الحالي ، وفي كثير من البلاد ذات النظم الشمولية ، تمتنع عن اثبات أي تعذيب يكون قد لحق بالمتهم ، وترفض احالته الى الطب الشرعي لبيان اصاباته وسببها ، حتى لا يؤثر ذلك سلبا على اعترافاته ، فيزعزع يقين المحكمة عن الاقتناع بها ·

١٠ ـ طلب الادعاء أن يكون الحكم على المتهمين وفقا للعوائد المصرية ، وهي أساليب وعادات أوجدها العثمانيون . مثل الخوزقة (أى الوضع على الخازوق) والتوسيط (اى قطع جسم الانسان من وسطه) أو السلخ (أي سلخ جلده من كل جسمه) أو التمزيق (أى ربط كل من يديه ورجليه بأربعة أحصنة تضرب بشدة فيجرى كل منها في اتجاه ، مما يؤدى الى تمزيق جسم المذنب أو الضحية) •

وصدر الحكم فعلا باعدام سليمان الحلبي بالوضع على الخازوق • وأثبت الجبرتي تنفيذ الأحكام في سطرين ، دون أن يبدى فزعا أو جزعا أو هلعا ، أو يستغرب العقوبة أو يستنكر التنفيذ ، لأن هذه العقوبات . وأسلوب تنفيذها ، كان أمرا شائعا جاريا ، قبل عصره وأثناء حياته •

١١ ـ كانت اجراءات التحقيق ، ونظام المحاكمة ، أمرا عجبا لدى الجبرتي ، المؤرخ الأزهرى ، وبطبيعة الحال كان وقعها أشد عجبا لدى غيره ، وهو الأمر الذى دفع الناس الى التساؤل عنها . ودفع الجبرتي الى شرحها بالتفصيل ، كأنها أعجوبة أو نادرة ، وهو يستغرب قبل ذكر التفاصيل من أن الفرنسيين لم يقتلوا القاتل

وشركائه فور اقراره • وهو ما يعني أن هذا الأسلوب ، في القتل بمجرد الاقرار ، أو بدون اقرار ، كان هو الأسلوب المتبع في مصر ، خلال العصر العثماني والمملوكي • يؤكد ذلك أن الجبرتي حرص على أن يثبت أن « أوباش المساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون يجترءون على ازهاق الأرواح لمجرد ما فيهم من شهوة حيوانية » •

١٢ ـ لم يوصف المتهمون بانهم مذنبون الا بعد صدور الحكم ، وذلك مما يفيد اعمال القاعدة القانونية التي تتأدى في أن « المتهم برىء حتى تثبت ادانته » ، وهي عكس القاعدة التي تقوم عليها النظم الشمولية والتي مؤداها أن « كل شخص مذنب أو مدان حتى يثبت براءته » .

١٣ ـ قالة أن الجهاد والمغازاة (من الغزو) تكون بالقتل ، وبقتل الكفار ، وأن من يقتل كافرا انما يؤجر على ذلك (من الله) قالة بدأها العثمانيون ، ولقنوها لسليمان الحلبي كغطاء لجريمته و كحافز للقتل ، لكن ، لا سليمان ولا مصطفى (الذي برىء) قدم أسانيد من القرآن أو دلائل من السنة عليها ، هي من ثم مجرد قول سماعي ورأى اشاعي •

١٤ ـ استخدم الجبرتى فى مفرداته لفظ الحكومة بمعنى القضاء ، والتحكيم بمعنى القضاء كذلك ، وهو الاستعمال الصحيح للفظين . ذلك أن لفظ الحكم فى القرآن يعنى القضاء فى خصومة ، كما أن لفظ التحكيم يفيد هذا المعنى . فحكومة النبى ﷺ كانت تحكيما ، بحيث يلجأ اليه الخصوم طائعين مختارين ، وينفذون الحكم طائعين مختارين ، وهو مفهوم غير المفهوم الصادر عن المحاكمة التى قضت فى واقعة اغتيال كليبر ، غير أن الجبرتى كان أسير الاستعمال الدارج والسابق للفظين منذ عهد ما قبل الاسلام حتى عصره هو .

ومن جانب آخر ، فقد استخدم الجبرتى لفظ الشريعة أكثر من مرة للاشارة الى القانون أو النظام ، دون أن يرى أن اللفظ يقتصر على الشريعة الاسلامية وحدها .

هذا الذى سلف وصفه تفصيلا ، عن محاكمة قاتل كليبر وأعوانه ، يدل بوضوح لا لبس فيه ، ويقطع بصراحة لا شائبة عليها ، أنه لم تكن توجد فى هذا العصر وقبله ، أى محاكم ، ولا نظم للمحاكمات ، ولا اجراءات للتقاضى ، على عكس ما يشيع الشائعون ويرجف المرجفون، بل كان القتل يتم بلا سبب والاعدام

يحدث بغير محاكمة ، كما ذكر الجبرتي ، وكما سوف يذكر وننقله عنه فيما بعد ٠

كذلك فان الجبرتي استعمل لفظ الفتوى في الاشارة الى الحكم ٠ مما يفيد اختلاط معنى الافتاء بمعنى القضاء في ذهنه وفي الفهم الاجتماعي عامة ٠

نتيجة لعدم وجود نظام للمحاكم ، فان الفرنسيين بدأوا في اقامة هذا النظام بصورة عصرية ٠ فلقد سلف بيان أن نابليون رفض قبول وجود من كان يسمى قاضي عسكر ، وهو شخص رومي يعين من قبل السلطنة العثمانية ليرأس القضاة في مصر ٠ وهو الذي يعينهم ٠ وقد طلب نابليون من المشايخ أن ينتخبوا بدلا منه شيخا متضلعا يكون مصريا ابن مصري في اتجاه لتمصير القضاء والادارة في مصر ٠ وتلي ذلك ما يقول عنه الجبرتي « شرعوا في جلسة الديوان ، وصورته أنه اذا تكامل حضور المشايخ يخرج اليهم الوكيل وصحبته المترجمون ، فيقفون له فيجلس معهم ويقف الترجمان الكبير ٠٠٠ ويجتمع أرباب (أصحاب) الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان ، وهو من خشب مقفص وله باب كذلك ، وعنده الجاويش يمنع الداخلين خلاف أرباب الحوائج ، ويدخلهم بالترتيب ، الأسبق فالأسبق ،

فيحكى صاحب الدعوى قضيته . فيترجمها له الترجمان،
فان كانت من قضايا الشريعة فاما أن يتمها قاضى
الديوان بما يراه العلماء أو يرسلوها الى القاضى الكبير
بالمحكمة ان احتاج الحال فيها الى كتابة حجج أو كشف
من السجل ··· وان كانت من غير جنس القضايا
الشرعية كأمور الالتزام أو نحو ذاك ··· يكتب الكاتب
العربى ··· في سجل كل ما قال المدعى والمدعى عليه.
وما وقع فى ذلك من المناقشة ، وربما حكم قاضى الديوان
فى بعض ما يتعلق بالأمور الشرعية · ومدة الجلسة
من قبل الظهر بثلاث ساعات (أى حوالى التاسعة صباحا)
الى الأذان (أذان الظهر ؟) أو بعده بقليل ، حسب
الاقتضاء ··· ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان
التسعة ، أربعة عشر ألف فضة فى كل شهر ، عن كل يوم
(أى بواقع كل يوم) أربعمائة نصف فضة · وللقاضى
والمقيد (الذى يتولى قيد القضايا) والكاتب العربى
والمترجمين وباقى الخدم مقادير متفاوتة تكفيهم
وتغنيهم عن الارتشاء » · صفحة ١٤٥ ·

وتبع ذلك أن « قرىء تقليد الشيخ أحمد العريشى
بقضاء مصر ، ·· وتقليد القضاء بدمياط لأحمد
أفندى عبد القادر ، وابيار العلامة الشيخ رضوان نجا،

ومحلة مرحوم للشيخ عبد الرحمن الرشيدى » .
صفحة ١٥١ .

بهذا بدأ نظام جديد للقضاء . كان غريبا بغير شك على الناس ، بدليل ما يلحظ فى طريقة وصف الجبرتى للمحكمة (التى يسميها ديوان) ولطريقة انعقاد الديوان ، ونظام نظر القضايا . وتسجيل كل ما يجرى فى كل قضية واحالة القضايا التى تحتاج الى كتابة حجج أو كشوف الى قاض آخر ، وأخذ رأى القاضى العضو فى الديوان فى المسائل الشرعية التى تعرض فى القضايا .

والمهم فى هذا النظام أنه قصد تمصير القضاء ، باشتراط أن يكون القاضى مصريا ابن مصرى ، وأبطل نظام قاضى عسكر الرومى ، هذا فضلا عن تخصيص مرتبات مجزية لأعضاء الديوان ، والقضاة ، والكتبة ، والحجاب ، مما يغنيهم عن الرشوة من الخصوم وأصحاب القضايا .

الخطاب الفرنسى للمصريين

قال نابليون بونابرت : لقد حكمت شعبا مسلما فادعيت الاسلام ، وحكمت شعوبا مسيحية فانتحلت الكثلكة ، ولو حكمت شعبا يهوديا لأعدت بناء هيكل سليمان • وهذا القول ، يعنى أن نابليون كان يعرف تماما قواعد اللعبة ، فيما يتعلق بالدين والسياسة ، هذه القواعد التى يكاد يلعبها ، ان بكفاية وان بقصور أغلب الحكام وأكثر الساسة ، وان لم يعبروا عن ذلك بدقة ووضوح ، كما عبر نابليون •

ومقتضى ذلك ضرورة متابعة الخطاب الفرنسى للمصريين ، منذ بدأت الحملة الفرنسية وحتى انتهت • ذلك بأن هذا الخطاب لم يكن واحدا، ولم يستمر ثابتا ؛ انما تدرج وتنوع ، وتغير وتطور ، وفقا للأحداث وتبعا للمناسبات ، وانه كان ينتظمه على الدوام خط دينى واضح •

يقول الجبرتي : « ووردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا الى دمنهور ورشيد ، وخـرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم فذهبوا الى فوة ونواحيها ، والبعض طلب الأمان وأقام ببلده ، وهم العقــلاء ، وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مرسـوما (منشورا) وطبعوه وأرسلوا منه نسخا الى البلاد التى يقدمون عليها ، تطمينا لهم . ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى (الأسرى) الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم ، وحضر منهم جملة (جمــاعة) الى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ، ومعهم منه عدة نسخ ، ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس ، وهم على شكلهم من كفار مالطة ويعـرفون باللغـات ، وصورة ذلك المكتوب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك له فى ملكه . من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسـوية (المســاواة) السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية ، بونابارته ، يعـرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد (بعيد) الصناجق (المماليك) الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون (يعاملون) بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ،

ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم . واخرنا (أرجأنا) من مدة عصور طويلة (؟) هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلادالاباظة والجراكسة ، يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها .

فأما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون : قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف (المكان) الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله ، وأن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبو (يستحقوا) أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصون بكل شيء أحسن فيها ، من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الأرض المصرية التزاما (أى حقا) للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف

وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية • فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم (بين المصريين) سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الامة كلها ، وسابقا (قديما) كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر (المتاجر الكثيرة) وما أزال ذلك كلها الا الظلم والطمع من المماليك • أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية (الشوربجية) واعيان البلد ، قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى (روما) وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكورللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين •

ومع ذلك (فان) الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه •

ومع ذلك فان المماليك امتنعوا من (عن) اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره ، فما أطاعوا أصلا الا لطمع

أنفسهم . طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعالى (تعلو) مراتبهم . طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين (منحازين) لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر (أكثر) تسارعوا الينا بكل قلب . لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا ، فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر ... الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل أحد (شخص) من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئنا ، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة . والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك و (لأنه) أصلح حال الأمة المصرية » .

(وقد كتب التاريخ بتقويم الثورة الفرنسية ، فأضاف الجبرتى يقول : يعنى فى آخر شهر محرم سنة هجرية . (١٢١٣ هـ) . صفحة ٤ ــ ٥ .

وبعد دخول الفرنسيين الى مصر (القاهرة) جمعوا المشايخ والأعيان والتجار والعلماء وقرأوا عليهم كتابا جاء فيه « ... بأن قطر مصر هو المركز الوحيد، وأنه أخصب البلاد ، وكان يجلب اليه المتاجر (التجارة)

من البــلاد البعيــدة ، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التي يعرفها النــاس فى الدنيا · أخــذت من أجــداد أهــل مصر الأول ، ولــكون قطر مصر بهــذه الصــفات طمعت الأمم فى تملكه ، فملكه اهــل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن · الا أن دولة الترك شــددت فى خرابة لأنهــا اذا حصــلت الثمرة قطعت عروقها ، فلذلك لم يبقوا بأيدى الناس الا القدر اليسير ، وصــار النــاس لأجل ذلك مختفين تحت حجــاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم · ثم ان طائفــة الفرنساوية بعدما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيــامهم بأمور الحروب اشتاقت نفوسهم لاستخلاص (انقاذ) مصر مما هى فيه ، واراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفممة جهلا وغباوة ، فقدموا وحصل لهم النصرة · ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس ولم يعــاملوا النــاس بقسوة ، وان غرضهم تنظيم أمور مصر واجراء (انشاء أو تطهير) خلجانهــا التى دثرت (اندثرت أو ردمت) ويصير لها طريقان ، طريق الى البحر الأســود وطريق الى البحر الأحمر ، فيزداد خصبها وريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك ، استجلابا لخواطر أهلها وابقاء للذكر الحسن · فالمناسب من أهلها ترك الشغب ، واخلاص المودة · وأن هذه الطوائف المحضرة (الحاضرة)

من الاقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة ، لأنهم أهل خبرة وعقـل ، فيسـألون عن امور ضرورية ويجيبون عنها ، فينتج لصارى عسكر من ذلك ما يليق (ما يحسن) صنعه ... » ثم يضيف الجبرتى قائلا عن نفسه « ولم يعجبنى فى هـذا التركيب (البيـان) الا قوله (عن الترك) المفممة جهلا وغباوة ... وقوله .. ومع ذلك لم يتعرضوا (أى الفرنسيون) لأحـد . الى آخـر العبارة » صفحة ٢٣ ، ٢٤ .

وهـذا الخطاب الأول من الفرنسـيين للمصريين يتضمن البنود التالية :

١ ــ التاكيـد عـلى أهميـة الاسـلام ، وأنهـم (الفرنسيون) غير معادين للمسلمين ، ولم يغزوا مصر لازالة الاسلام ، كما قيل المصريين (ربما من المماليك وحواشيهم) . وفى هذا المعنى ، فان المنشورات التى كانت توزع على البلاد قبل وصـول الجيش الفـرنسى اليهـا ، تضـمنت فى أولها البسـملة ، ونفى الـولد والشريك عن الله ، والدعوة الى استمرار اقامة الصلاة فى الجوامع .

٢ ـ اللجوء الى الفكر الجبرى السائد ، والفهم القدرى الدارج ، لفرض استسلام المصريين للغزو الفرنسي ، قولا بأن « رب العالمين أمر بانقضاء دولة المماليك » ، فاذا قر لدى الناس أن هذا قضاء الله ، فانهم لا شك سوف يخضعون له ، ولا يقاومونه ، اذ لا تجدى أى مقاومة فى تغيير القضاء أو تبديل القدر (فى الفهم الدينى التقليدى الجبرى) ٠

وهذه الفكرة الجبرية القدرية ، سوف تتسع وتتزيد فى الخطاب الفرنسي ، كما سيلى بيانه ٠

٣ ـ الحديث عن مصر والمصريين ٠ فذلك هو ابتداء تأسيس فكرة الدولة الوطنية ، تلك الدولة التى كانت قد انمحت من فكر المصريين وفهمهم ، ربما منذ الغزو الفارسى لها سنة ٥٢٥ ق٠م٠ وخلال العهد المسيحى كانت مصر جزءا من العالم المسيحى ، واذا كانت للكنيسة المصرية مواقف وطنية واتجاهات استقلالية ، فقد كان المركز والأساس فى ذلك هو الكنيسة الأرثوذكسية (المستقيمة) وليس مصر ذاتها كوطن ٠ وفى العصر الاسلامى كان المسلمون فى البداية هم قبائل الأعراب التى وقع بها الغزو العربى ، بينما كان المصريون يسمون بالقبط ، نسبة الى لفظ Gypt

الذى أطلقه الاغريق على مصر · وظلت غالبية المصريين مسيحية (قبطية) حتى يدأ التحول الجماعي الى الاسلام ، ابان الحكم الفاطمى (المغربى البربرى الاسماعيلى) ، ومن ثم صار الناس مسلمين من جانب وأقباطا من جانب آخر · وأثناء الحكم العثمانى الذى بدأ سنة ١٥١٧ أصبح الجميع رعايا عثمانيين · ولهذا فان توجيه خطاب الى أبناء مصر بلفظ المصريين ، لا الرعايا ، ولا المسلمين والأقباط ، يعد خطابا جديدا بغير شك ، كما أن الخطاب عن مصر وحدها ، هو مفهوم جديد ، وارد ووافد ·

٤ ــ تحديد مبدأ المساواة كأساس بين الناس ، بحيث لا تكون المفاضلة بينهم الا بالعقل والعلم والفضائل (الخلق) ، هو مفهوم جديد لدى المصريين الذين ــ على الرغم من تأكيد القرآن والاسلام عليه ــ درجوا آزمانا على الاحساس بالمذلة والمهانة ، وعدم المساواة ، بالأعراب والترك والمماليك وحواشيهم · ومبدأ المساواة بهذا المعنى هو بلا شك أساس الدولة المدنية المعاصرة ·

٥ ــ حق المصريين فى التأهل للمناصب السامية واكتساب المراتب العالية ، خطاب مستحدث لهم ، فقد

ظلوا أجيالا بعد أجيال وهم يلزمون الاقتصار على التجارة والفلاحة . حيث تكون المناصب السامية للغرباء المحتلين وتكون المراتب العالية لغير المصريين من الغزاة والأجانب . بل وحتى العبيد •

٦ ـ اثارة التساؤل عن حق المماليك فى الاستيلاء على مصر ، هو استثارة للتفكير العقلى بدلا من التسليم الجبرى ، قولا أو فهما ، بأن تلك مشيئة الله ، وارادة السلطان ، وحكم المقادير • وهذا التساؤل يضع فى مفهوم الناس معنى جديدا بالنسبة اليهم ، مقتضاه أن عليهم أن يتساءلوا عن الحق والسبب الذى يستند اليه أى حاكم فى الحكم •

٧ ـ المعرفة الواعية الشاملة بتاريخ مصر : فالفرنسيون لا يبلغ بهم اعتزازهم ببلادهم أن ينسبوا اليها كل شىء ، وأن يبتدءوا بها كل تاريخ ، لكنهم يقرون بحقيقة غائبة حتى عن أبناء مصر ، فيذكرون ويؤكدون أن مصر هى الاقليم الحسن الأحسن فى كل الكرة الأرضية ، وأنها أخصب البلاد ، وأن العلوم والصناعة والقراءة والكتابة بدأت منها هى ثم انتشرت فى العالم - هذا وأن خصوبتها ، وثراءها ، هو الذى دفع الأمم الى الطمع فيها ، فتملكتها بابل (الأشوريون)،

واليونانيون ، والعرب والترك (العثمانيون) . وهؤلاء الترك شددوا في خراب مصر ، فأفقروا الناس وظلموهم .

٨ ــ رسم تخطيط مستقبلي لوضع مصر الداخلي والدولي ، بتنظيم أمورها (كما حدث في الوضع الاداري بأكمله) ، وانشاء أو تطهير الخلجان (جمع خليج) وتمهيد طريق الى البحر الأسود (عبر الشام نحو آسيا الوسطى وأوربا الشرقية) وطريق الى البحر الأحمر (نحو بلاد العرب والبلاد الآسيوية كالهند والصين وغيرها) .

٩ ــ وضع أسس التعامل الاجتماعي ، بمنع القوى من ظلم الضعيف (وهو تعبير اسلامي ورد في خطبة أبي بكر فور مبايعته بالخلافة) ، وحق الجميع من المصريين في تولي المناصب ، وجعل أساس المفاضلة هو العقل والعلم والفضائل ، بدلا من العلاقات الخاصة والروابط العائلية او الجنسية ، وتقرير مبدأ انتخاب الحكام (الذي يشير اليه الجبرتي بلفظ القرعة) . مثال ذلك : « نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا أو رئيسا عليكم ... فقال بعض الحاضرين : الشيخ الشرقاوي ، فقال ... (لا) وانما

ذلك يكون بالقرعة (أى الانتخاب) فعملوا القرعة بأوراق فطلع الأكثر (أكثر الأصوات) على الشيخ الشرقاوى ، فقال ... يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس » صفحة ٢٤ .

١٠ ـ استعمال تعبيرات جديدة ، ترجمة عن اللغة الفرنسية ، أهمها لفظ دولة للاشارة الى معنى التداول أو معنى الدولة المعاصر Etat, State ، فيما قيل عن دولة المماليك (بمعنى الحكم الذى دوول بينهم من اللفظ القرآنى دولة بمفهوم انتداول) وما قيل عن دولة الترك (يقصد العثمانيين) وهى دولة بالمعنى المستحدث. المقابل للفظ الانجليزى State واللفظ الفرنسى Etat

مما هو جدير بالملاحظة ما ذكره الجبرتى عند سماع الخطاب الذى تلى على كبار المصريين من اعجابه بما جاء فى هذا الخطاب عن الترك من أنهم الجماعة (الأمة) المفعمة (الممتلئة) جهلا وغباوة ، وما جاء فيه من أن الفرنسيين لم يتعرضوا لأحد ولم يعاملوا الناس بقسوة ، وأن غرضهم هو تنظيم مصر (الى آخر الخطاب الوارد نصه فيما سلف) .

والالحاح على المعنى الدينى فى الخطاب الفرنسى، واضح مما سلف بيانه من أن بعض صغار المشايخ

كانــوا قد اتجهــوا الى مكان الجيش الفرنسي بمنطقــة الجيزة ، فلما قابلوا نابليون قال لهم « ســوف نعمــل لكم ديوانا لأجــل راحتــكم وراحة الرعيــة واجــراء الشريعة » صفحة ١٠ ، أى تطبيق الشريعة • ففــكرة تطبيق الشريعــة لم تجيء عــلى السـنة أو فى مطالب المشايخ ، ولا رفعها أحد من الشعب المصرى ، ولا كانت فى الخطاب العثمانى أو الحكم المملوكى ، لــكن الذى ابتدأها هم الفرنسيون •

وقد اتخذ الخطاب الفرنسي بعــد ذلك خطا دينيــا بارزا ، من الواضح أنه كان من عمل أو مساعدة بعض المشايخ المصريين أو المسلمين ، فى مشــورة أو خــدمة الفرنسيين ، وهــذا ما لاحظه الجبرتى نفســه اذ قال « كتبــوا (أى الفرنســيون) أوراقا وطبعــوها ، وألصقوها بالأســواق ، وهى من ترصــيف (انشاء) وتنميق بعض الفصحاء » صفحة ٧٢ •

ما الذى طوره ، ونماه ، هــؤلاء الفصــحاء ، أو أمروا فعبروا عنه ، فى الخطاب الفرنسى • انها فكرة الجبرية بالذات ، التى تدعوا الناس الى الاستسلام لمــا هو مقدر عليهم فى ارادة الله الأزلية ، بما لا يمكن أن يغيره انسان أو يبدله عمل •

ففي رسالة لبونابرت ، يؤرخها الجبرتي فيقول على لسان القائد الفرنسي « استمروا في محلكم ووطنكم مطمئنين ومرتاحين . وأخبروا من كان خارجا عن محله ووطنه ان يرجع ويقيم في محله ووطنه . ومن قبلنا (ناحيتنا) عليكم ثم عليهم الأمان الكافي الحماية التامة ... ان كل خير يأتي من الله تعالى ، وهو يعطي النصر من يشاء » صفحة ٤٩ .

ومن خطاب نابليون الى المصريين بعد غزو يافا « سبحان مالك الملك ، يفعل في ملكه ما يريده ... هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساوية لبندر يافا (تم) كل شيء بقضائه (قضاء الله) فلا ينفع الهروب من القدر المكتوب ... استقيموا عباد الله ، وارضوا بقضاء الله ، ولا تعترضوا على أحكام الله .. » صفحة ٥١ ـ ٥٣ .

وفي كتاب آخر لنابليون ، يرصد الجبرتي قوله « السبب في مجيء هذه العمارة (الأسطول أو الجيش ، ومن هذا اللفظ نحت لفظ الاستعمار » الى هذا الطرف (المكان) المشم (الرجام) بالاجتماع على المماليك والعربان لأجل (الذين اجتمعوا على) نهب البلاد خراب القطر المصري ... هو الرحمان الرحيم المساعد

المعين المقوى (الذى يقوى) العاملين الموحدين ، الماحق رأى الفاسدين المشركين ، وقد سبق فى علمه القديم وقضائه العظيم أنه أعطانى هذا الاقليم وقدر وحكم بحضورى عندكم الى مصر لأجل (من أجل) تغييرى الأمور الفاسدة ، وأنواع الظلم ، وتبديل ذلك بالعدل والراحة ، مع صلاح الحكم » صفحة ٧٩ ٠

وفى كتاب لنابليون (بعد الحركة الأولى ضد الفرنسيين) « ٠٠ نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول ، الخالين من المعرفة وادراك العواقب سابقا (مسبقا) أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر ، فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ٠ والبارى سبحانه وتعالى آمرنى بالشفقة والرحمة على العباد ، فامتثلت (ل) أمره ، وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم ٠٠ أيها العلماء والأشراف أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى ويخاصمنى انما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه فى هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدى الله تعالى وارادته وقضائه ٠ ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة ٠ وأعلموا أيضا أمتكم أن الله قدر فى الأزل هلاك أعداء الاسلام ٠٠٠ على يدى ، وقدر فى الأزل

أني أجيء من المغرب (الغرب) الى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الأمر الذى أمرت به . ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه . وأعلموا أيضا أمتكم أن القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل ، وأشار فى آيات أخرى الى أمور تقع فى المستقبل . وكلام الله فى كتابه صدق وحق ، لا يتخلف اذا تقرر . هذا وثبتت (تثبت) هذه المقالات فى آذانكم ، فلترجع أمتكم جميعا الى صفاء النية واخلاص الطوية ، فان منهم من يمتنع عن الغى واظهار عداوتى خوفا من سلاحى وشدة سطوته ولم يعلموا أن الله مطلع على السرائر ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى يفعل ذلك (يظهر الطاعة ويخفى الحقد) يكون معارضا لأحكام الله ، ومنافق ، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب . واعلموا أيضا أنى أقدر على اظهار ما فى نفس كل أحد منكم ، لأننى أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه ، وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذى عنده ، ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل ما فعلته ، وحكمت به فهو حكم الهى لا يرد ، وأن اجتهاد الانسان غاية جهده ما (لا) يمنعه

(يؤيده) عن (تغيير) قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى ... » صفحة ٣٨ ، ٣٩ .

هذا خطاب شرقى صرف ، بعيد كل البعد ، عن الفكر الغربى فى عصر الحملة الفرنسية ، وفكر نابليون بونابرت ، وانما يغلب التقدير بأن من قال الجبرتى عنهم انهم بعض الفصحاء ، من المشايخ ، قد كتبوه له ، بل وربما أفهموه أن هذا الخطاب وحده هو الذى يمنع اى حركة ضد الجيش الفرنسى ، خاصة وأن العثمانيين كانوا قد شرعوا يثيرون المقاومة ضد هذا الجيش بالركون الى الدين ووصف الفرنسيين بالكفر ، وهو ما يشير اليه الجبرتى فيقول نصاه.. حضر هجان من ناحية الشام وعلى يده مكاتبات ، وهى صورة فرمان عليه طرة (خاتم) ومكتوب من أحمد باشا الجزار (والى عكا الذى لقب بالجزار لكثرة مجازره بقتل الناس من المسلمين وغير المسلمين) ، وآخر من بكر باشا ... خطابا للمشايخ ، وذلك كله بالعربى . ومضمون ذلك بعد براعة الاستهلال والآيات القرآنية والأحاديث والآثار (المأثورات) المتعلقة بالجهاد ، ولعن طائفة الافرنج والحط عليهم ، وذكر عقيدتهم الفاسدة ... فأخذها مصطفى بك كتخدا وذهب بها الى صارى عسكر

(نابليون) فلما أطلع عليها قال هذا تزوير من ابراهيم بك (ثانى اثنين كانا يحكمان مصر ، مع مراد بك ، الذى سلف بيان الجبرتى عنه) ليوقع بيننا و بينكم العداوة والمشاحنة » صفحة ٢٩ ٠

المماليك ، الذين أفاض الجبرتى فى وصف ظلمهم وبطشهم وسوء خلقهم ، ولم يقل فى أحد منهم كلمة حسنة ؛ والعثمانيون ، الذين هم بالمعنى العربى فرنجة لأنهم لا يتكلمون العربية ، وكل ما هو غير عربى فهو أعجمي ـ فى لغة القرآن وفهم المسلمين ، هؤلاء العثمانيون الذين تركوا حكم مصر للمماليك، فأفقروها بلدا وأذلوا المصريين شعبا ، عندما نازعهم على ملكهم لمصر ، بقرتهم الحلوب ، ومرتع لهوهم وعبثهم ، جيش فرنسي ، رفعوا رايات الجهاد ، وركنوا الى آيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ ومأثورات المسلمين . يكتبونها باللغة العربية ، التى لم يتكلموا بها قط ، حتى اليوم ، لكى يتهموا الغير بالكفر ، ولم يتذكروا أو يذكروا آية واحدة تبرر ظلم الانسان لأخيه الانسان ، وتخول لهم حق استعباد المصريين واستذلالهم أبناءها من المسلمين والأقباط وغيرهم ٠

ونتيجة لهذا الخطاب الدينى بالتكفير والجهاد ، فقد لجأ نابليون ـ بارشاد الفصحاء من المشايخ ـ الى اللجوء الى الخطاب الدينى المفرق فى فرض الجبرية وفى قبول الاستسلام ، فقال ان مجيئه الى مصر حدث بأمر الله . وأن نصره مكتوب فى قضاء الله الأزلى ، وأن من يعارض هذا القضاء ، انما يعارض الله ذاته ، ثم انتهى الى مبدأ حاكمية الله ، ذلك بأن حكمه هو حكم الله ، وارادته هى ارادة الله . وعلى الناس أن تقبل وتطيع ، والا أصابها المكروه فى الدنيا وحق عليها العذاب فى الآخرة .

وهكذا ، دار الفكر الدينى دورة كاملة ، فاستخدمه العثمانيون والمماليك لاستعادة ملكهم الذى ضاع منهم، واستعمله نابليون ليجعل من حكمه حكم الله ومن أمره أمر الله . وهذا وذاك نتيجة التأويل الفاسد لأحكام الدين والتفسير الخاطىء لآيات القرآن . فهل يجد المسلمون مخرجا من هذا وذاك ، حتى لا يستغل الدين أحد لاستعبادهم واستذلالهم !؟

مصر بعد خروج الفرنسيين

خمدت الحركة الثانية ضد الفرنسيين ، والتي يقول الجبرتي عنها ، ان « مدة الحرب والحصر بما فيها من الثلاثة أيام الهدنة (كانت) سبعة وثلاثين يوما ، وقع بها من الحروب والكروب والانزعاج والشتات والهياج وخراب الدور وعظائم الأمور، وقتل الرجال ونهب الأموال وتسلط الأشرار وهتك (أعراض) الأحرار (الحرائر) ... (ويقول قبل ذلك ان العثمانيين والمماليك وجنودهم) ذاقوا وبال أمرهم وانكشف الغبار عن تعسة (تعساء) المسلمين ، وخيبة أمل الذاهبين والمتخلفين (من العثمانيين والمماليك) وما استفاد الناس من هذه العمارة (الحركة) وما جرى في الغارة الا الخراب والسخام (الفحم أو سواد القدر) والهباب . » صفحة ۱۰۹ . ويردد الجبرتى فى هذا الخصوص بيتا من الشعر :

وذنب جره سفهاء قوم ۞ وحل بغير جانيه العذاب

وخلال هذه الحركة حدث ما يقــول عنه الجبرتى « ٠٠ أما المدينة فلم يزل الحال بها على النسق المتقــدم من الحرب والكرب والنهب والسلب ٠٠٠ حتى ضــاق خناق الناس من استمرار الانزعاج والحريق والسهر ، وعدم الراحة لحظة من الليل والنهار ٠ مع ما هم فيــه من عدم القوت حتي هلكت الناس وخصوصا الفقراء والدواب ، (هذا مع) ايذاء عسكر العثماني للرعيــة وخطفهم ما يجدونه معهم ، حتى تمنــوا (المصريون) زوالهم ورجوع الفرنسيس ٠ » صفحة ١٠٧ ٠

اذا كانت الحركة الثانية ضد الفرنسيين قد قامت وانتهت على الحــال الذى وصــفه الجبرتى ٠ المصرى الأزهرى العدل ، والتى دفعت المصريين الى تمنى زوال العثمانيين وجنودهم ورجوع الفرنسيين وحكمهم . فان تعقب بعض ما حدث للمصريين قبــل وبعــد مغــادرة الفرنسيين لمصر ، يكــون أمرا مهما لتقــدير التــاريخ تقديرا سليما ٠

بعد أن وصــف الجبرتى ما نتج عن الحــركة ، وما تخلف من خرائب كأثر لضرب الفرنسيين منــاطق الحركة بالقنابل والمدافع ، فانه يقول « ٠٠٠ وجميع

ما في ضمن ذلك من الحارات والدور صـــارت كلهــا خرائب متهدمة محترقة ، تسكب عند مشاهدتها العبرات ويتذكر بها ما يتلى في حق الظالمين من الآيات ، فتلك بيوتهم (أى بيوت المصريين) خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعقلون ، وقال تعالى : وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين • وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا • وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون • وقال تعالى : واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ••• وركب المشــــايخ والأعيان عصر ذلك اليوم وذهبوا الى كبير الفرنسيس (كليبر) فلما وصلوا الى داره ودخلوا عليه وجلســـوا ساعة ، أبرز اليهم ورقة مكتــوب فيهــا النصر لله الذى يريد أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس ، وبناء على ذلك سارى عسكر العام يريد أن ينعم بالعفو العام والخاص على أهل مصر وعلى أهل بر مصر ، ولو كانــوا يخــالطون (أى يســاعدون) العثمــانلى فى الحــروب • وانهم (فيما بعــد) يشــتغلون بمعايشهم وصنائعهم ••• ثم قاموا من عنـــده وشــقوا المدينــة

وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمئنان والأمان ... » صفحة ١١٠ .

وفي اليوم التالي اجتمع (المذكورون) بساري عسكر فقال لهم « ... اننا لما حضرنا الى بلدكم هذه نظرنا (قدرنا) ان أهل العلم هم أعقل الناس ، والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون . ثم انكم أظهرتم لنا المحبة والمودة ، وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالاحسان ، وخفضنا لكم جناح الطاعة ، وجعلناكم مسموعين القول مقبولين الشفاعة ، وأوهمتمونا أن الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون ، فلما حضر العثملي فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم ، وثبت عند ذلك نفاقكم . فقالوا له نحن ما قمنا مع العثملي الا عن أمركم ...: وخصوصا وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين ... أجابهم (كليبر) بقوله : ولأى شيء لم تمنعوا الرعية عما فعلوه من قيامهم ومحاربتهم لنا ، فقالوا لا يمكننا ذلك خصوصا وقد تقووا علينا بغيرنا ، وسمعتم ما فعلوه معنا من ضربنا وبهدلتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح وترك القتال . فقال لهم :

واذا كان الأمر كما ذكرتم ، ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك ، فما فائدة رياستكم ، وايش (ماذا) يكون نفعكم ؟ .. لا يأتينا منكم الا الضرر ، لأنكم اذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم واياهم علينا ، واذا ذهبوا رجعتم الينا معتذرين .. جزاؤكم ... قتلكم عن آخركم وحرق بلدكم وسبى حريمكم وأولادكم . ولكن حيث اننا أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم ، وانما نأخذ منكم الأموال .. (وفرض عليهم غرامات ضخمة) وقام من فوره ودخل مع أصحابه الى (ال) داخل وأغلق بينه وبينهم الباب . ووقفت الحرسية (الحرس) على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسين . فبهت الجماعة وانتقعت (امتقعت) وجوههم ونظروا الى بعضهم البعض وتحيرت أفكارهم ... ولم تزل الجماعة في حيرتهم وسكرتهم ، وتمنى كل منهم (لو) أنه لم يكن شيئا مذكورا . ولم يزالوا على ذلك الحال الى قريب (قرب) العصر ، حتى بال أكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان ، وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون في عرضهم .. » صفحة ١١١ ، ١١٢ .

وانتهى الأمر بأن رحل الفرنسيون من مصر بناء على اتفاق عقدوه مع العثمانيين ، وفيما حدث نتيجة

لذلك ، يحسن تقديم لقطات متتابعة مما ذكره الجبرتي نصا :

● كتب الشيخ أبو الانوار السادات الى كتخدا الدولة العثماني ... تذكرة (كتابا) جاء فيه « ... أما بعد ، فقد نقضت عهدى وتركت مودة أل بيت جدى (أى النبى) وأطعت الظلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الثقلة ، فأعنتهم على البغى والجور ، وسارعت فى تنجيز (انجاز) مرامهم الفاسد على الفور ، من الزامكم الكبير والصغير والغنى والفقير اطعام عسكركم (العثمانلى) الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات ، وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات ، فكان جهادهم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى ، فاستحكم الدمار والخراب ، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب ، فبذلك كان عسكركم (العثمانلى) مخذولا ، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا ، كيف لا وأكابركم أضمرت السوء للمرتزقة (طالبى الرزق) فى تضييق معايشهم وأخذ مرتباتهم واتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم (متعلقاتهم) ، وقد أخفتم أهل البلد (مصر) بعد أمنها ، وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها (اطفائها)

ثم فزرتم فرار الفيران من السنور (القطط) وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور ، فواغوثاه ٠٠٠ » صفحة ١٠٨ ٠

● وجاء الجبرتى خطاب من صديق له كان قد فر الى أسيوط ، وقت الحركة الثانية ، ورد فيه « ان أكثر الفارين رجع الى مصر (القاهرة) لضيق القرى وعدم (وجود) ما يعيشون به فيها ، انزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر (اللصوص) بالليل والنهار ، والقتل فيما بينهم ، وتعدى القوى على الضعيف ٠ واستمرت الطرق مجفرة (مضطربة ؟) والأسواق معفرة والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة ، والحانات والوكائل (الوكالات) مغلوقة والنقوش مطبوقة والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة ٠٠٠ واذا أراد الانسان أن يفر الى أبعد مكان وينجو بنفسه ٠٠٠ لا يجد طريقا للذهاب ، وخصوصا من الملاعين الأعراب الذين هم أقبح الأجناس وأعظم بلاء محيط بالناس ٠٠٠ وكذلك أخذ ربك القرى وهى ظالمة ٠٠» صفحة ١١٦ ٠

● « ٠٠٠ احتجب سارى عسكر (مينو) عن الناس ، وامتنع من مقابلة المسلمين (بعد اغتيال كليبر) وكذلك (فعل) عظماء الجنرالات وانحرفت طباعهم

عن المسلمين ... واستوحشوا منهم ، ونزل بالرعية الذل والهوان .. » صفحة ١٤٢ .

● « .. حصلت كارثة سيدى محمود ... اذ أشار عليه (صديق) بالاختفاء ... فوقع له مزيد المشقة فى مدة اختفائه ، وتبرأ منه غالب أصحابه ومعارفه من العربان وغيرهم وتنكروا منه .. » صفحة ١٥٢ ، ١٥٣ .

● « فى ذلك اليوم ... وقع بمجلس الديوان بين الوكيل والمشايخ مفاوضة ومناقشة ، وذلك أنه لما أشيع ورود المراكب الى أبى قير شحت الغلال وارتفعت من الرقع (الأسواق) على العادة وزادت أثمانها فتفاوضوا فى شأن ذلك وانه لابد من الاعتناء من الحكام وزجر الباعة وطواف المحتسب وشيخ البلد على الرقع والسواحل ، ولما قرىء الفرمان ... قال بعض الحاضرين (ان) العقلاء لا يسعون فى الفساد ، واذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم ، فقال الوكيل ينبغى للعقلاء ولأمثالكم نصيحة (نصح) المفسدين ، فان البلاء يعم المفسد وغيره ، فقال بعضهم هذا ليس بجيد ، بل العقاب لا يكون الا على المذنب ، قال تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة) وقال آخر .. (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فقال الوكيل المفسدون . أهاجوا الفتنة فعمت العقوبة ،

والمدافع والبنبات (القنابل) لا عقل لها حتى تميز بين المصلح والمفسد ، فانها لا تقرأ القرآن • وقال آخر : المخلص نيته تخلصه ، فقال الوكيل : ان المصلح من يشمل صلاحه الرعية ••• وطالت المناقشة » صفحة ١٥٦ •

وهي مناقشة كانت منذ بدأ التاريخ الاسلامي ومازالت حتى الآن قائمة ، جانب منها يرى أن المسئولية شخصية ، ويستند في ذلك الى الآيات القرآنية (كل نفس بما كسبت رهينة) (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، في حين يرى جانب آخر أن الفتنة تعم الصالح والفاسد، ويركن في ذلك الى آيات من القرآن منها (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) (اذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) •

● « حضرت جوابات المراسلات التي أرسلت الى البلاد بسبب الغلال والأقوات بأن المتسببين والتجار أجابوا بالسمع والطاعة ، غير أن المانع لهم قطاع الطريق وتعدى العرب ومنعهم السبيل • وأن أبواب البلدان مغلوقة بحيث لا يمكن الخروج منها ، فاذا أمنت الطرق حضر المطلوب •• » صفحة ١٦٤ •

● « ... في ذلك اليوم فتحوا باب الجامع الأزهر (الذى كان مغلقا منذ مقتل كليبر) ... و ... دخل بعض الانجليز ومروا بأسواق المدينة ... وبات الناس يسمعون لغط العساكر العثمانية وكلامهم ووطء نعالاتهم ، فنظروا فاذا بالفرنساوية خرجوا بأجمعهم ليلا ... ففرح الناس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير ، وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم ، والنساء يلقلقن (يزغردن) بأصواتهم بقولهم نصر الله السلطان ... ودخل الكثير من العساكر مشاة وركبانا ، أجناسا مختلفة . » . وطافوا بالأسواق ووضعوا نشاناتهم (أقمشة الرتب) وزنكهم على القهاوى (المقاهى) والحوانيت والحمامات ، فامتعض أهل الأسواق من ذلك . وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالأسواق ، وتواجدت البضائع وانحلت (قلت) الأسعار وكثرت الفاكهة ... وتعاطى ببيع غالبها الأتراك ، والأرنؤود (قبائل تقيم فى شمال اليونان وألبانيا) ، فكانوا يتلقون (يقابلون) من يجلبها من الفلاحين بالبحر والبر ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة ... بأغلى الأثمان ... » صفحة ١٩٧ .

● « ... ان شخصا من العسكر بالجمالية شرب من العرقسوسى شربة عرقسوس ولم يدفع له ثمنها ، فكلم العرقسوسى القلق (الرئيس) الانكشارى فأحضره وأمره بدفع ثمنها ونهره ، وأراد ضربه فاستل ذلك العسكرى الطبنجة وضرب ذلك الحاكم (الانكشارى) فقتله ، وهرب ... ودخل الى داره وامتنع فيها وصار يضرب بالرصاص على كل من قصده ، فقتل خمسة أنفار ، ومر شخصان من الأرنؤود بتلك الخطة (المنطقة) فقتلهما الانكشارية لكون الغريم أرنؤديا من جنسهما ، فلما أعياهم أمره حرقوا عليه الدار ، فخرج هاربا من النار فقبضوا عليه وقتلوه . ومات تسعة أشخاص فى شربة عرقسوس ... وذلك من مبادىء (أوائل) قبحهم » صفحة ١٩٨ ، ١٩٩ .

● « نودى يابطال كلف (تكاليف) القلقات (رؤساء العساكر) وابطال شرك (شركة) العسكر لأرباب الحرف الا من شارك برضاه وسماحة نفسه ، فلم يمتثلوا لذلك ، واستمر أكثرهم على الطلب من الناس ... وأما العسكر فلم يمتثلوا (لـ) ذلك الأمر ... ووقع بسبب ذلك شكاوى ومشاكلات(مشاكل) . » صفحة ٢٠٠ .

● « ... وليس القصد من أولئك القلقات (قصد هؤلاء الجنود) الانتصار للدين بل إستغنام السلب (أخذ السلب غنيمة) وأخذ الثياب ... » صفحة ٢٠١ .

● عزل الوزير القاضي .. الذى كان ولاه قاضى العسكر بمصر (بصفته) نائبا عمن يئول اليه القضاء باسلامبول ، فلما تولى (القضاء) حصل منه تعنت فى الأحكام وطمع فاحش وضيق على نواب القضايا بالمحاكم ، ومنعهم من سماع الدعاوى ، ولم يجزهم (يجيزهم) على عوائدهم ، وأراد أن يفتح بابا فى الأملاك والعقار ويقول انها صارت كلها ملكا للسلطان، لأن مصر قد ملكها الحربيون (العسكر) وبفتحها صارت ملكا للسلطان ، فيحتاج (الأمر) أن أربابها (أصحابها أو مواطنوها) أن يشترونها من الميرى (السلطان) ثانية .. » صفحة ٢٠٢ .

● « أطلقوا (العثمانيون) للملتزمين التصرف ... ليقضوا ما لهم وما عليهم من البواقى ومال الميرى (الضرائب) والمضاف (وما يضاف اليها) ، ويدفعوا جميع ذلك الى الخزينة (الوالى) ... والقصد من ذلك اطمئنانهم (تطمينهم) بالجباية والرجاء بالتصرف فى المستقبل ، ووعدهم (الوالى العثمانى) بذلك ... بعد

دفعهم الحلوان (الرشوة) ، مع أن الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا في الأموال الميرية والخراج فوجدوا ولاة الأمور يقبضون سنة معجلة ، ونظروا في الدفاتر القديمة وأطلعوا على العوائد السالفة ... فاختاروا الأصلح في أسباب العمار ، وقالوا ليس من الانصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة ... فلم يطالبوا الملتزمين بالأموال الميرية ولا الفلاحين بالخراج، فتنفست الفلاحون وراج حالهم وتراجعت (رجعت لهم) أرواحهم ، مع (من) عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف (التكاليف) ... » صفحة ٢٠٤ .

● « لما تولى ... أمر الحسبة (أيام الفرنساوية) منعوه من أخذ العوائد والمشاهرات (الجعل الشهرى) من السوقة (أهل الأسواق) وجعلوا له مرتبا في كل يوم يأخذه من الأموال الديوانية (خزانة الحكومة) نظير خدمته ، وكذلك أتباعه (لكنه بعد خروج الفرنسيين) فصل من عمله وطولب بمائتى كيس ، كان (قد) أعطاها له (العثمانيون) ... لمشتروات الذخيرة (فاختلسها) .. » صفحة ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

● « تجمع النساء والفلاحون والملتزمون ... ببيت الوزير (العثمانى) بسبب الإلتزام (الضرائب)

... فلما اجتمعوا وصرخوا سأل الوزير عن ذلك فأخبروه، فأمر بكتابة فرمان بالاطلاق والاذن للملتزمين بالتصرف (كيفما شاءوا) ... وبقي الأمر زجاجا (مقلقلا) أياما ، وذلك أن القوم (العثمانيين) يريدون أمورا مبطونة في نفوسهم وأطماعا مركوزة في طباعهم .. » صفحة ٢٠٧ .

● « وقع من طوائف العسكر (العثمانلى) عربدة بالأسواق وتخطفوا أمتعة الناس ، ومن باعة المآكل كالشواء والفطير والبطيخ والبلح فانزعجت الناس ورفعوا متاعهم من الحوانيت ، وأخلوا منها (أخلوها) وأغلقوها . فحضر اليهم بعض أكابر (قواد العسكر) وراطنهم (أى حدثهم بغير العربية) فانكفوا ، وراق الحال . وتبين أن السبب في ذلك تأخير علائفهم ، وذلك أن من عاداتهم القبيحة أنه اذا تأخرت عنهم علائفهم فعلوا ذلك بالرعية وأثاروا الشرور فعند ذلك يطيبون خواطرهم ويوعدونهم أو يدفعون لهم ... وذلك من جملة عوائدهم القبيحة » صفحة ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

● من الحوادث « الارتباك في أمر حصص الالتزام المزاد (الزيادة) في المحلول (فيما حل سداده) ،

وعدم الراحة والاستقرار على شيء يرتاح الناس عليه .
ومثـل ذلك الرزق الاحباسـية والأوقاف (الأرزاق
المأخوذة من الأوقاف) اذ . . . حضر شخص تولى النظر
والتفتيش عـلى جميع الأوقاف المصرية السـلطانية
وغيرها ، وبيده دفاتر ذلك ، فجمع المباشرين (نظار
الأوقاف) والمساجد . . . وطلب كل من له أدنى علاقة
بذلك (بالأوقاف) . . . ثم انكشف الامر وظهر أن
المراد من ذلك ليس الا تحصـيل الدراهم (النقـود)
فقط ، وأخذ المصالحات (أموال تدفع للصلح أو التأجيل)
والرشوات (الرشاوى) بقدر الامكان بعد التعنت فى
التحرير والتعلل باثبات المدعي في الايراد والمصرف ،
خصوصا اذا كان الشـخص ضعيفا ، وليس من أرباب
الوجاهة والمتوجهين ، أو بينـه وبين الكتبـة حـزازة
باطنية ، ثم يحررون دفترا ، ويحررون الفائظ (الربا
المركب) ثم يطلبون منه ايراد ثلاث سنوات أو أربعة ،
ولم يزل يصالح عن نفسه بما أمكنه ثم يختمون له ذلك
الدفتر ويتركونه وما يدين (به) ان شاء عمر وان شاء
آخر ، فان انتهت اليهم بعد ذلك شكوى فى ناظر وقف
سبقت له مصالحة لا تسمع شكوى الشاكي ولا يلتفت
اليها . . » صفحة ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

● وقعت « زيادة النيـــل الزيادة المفــرطة عن المعتاد ·· (حتى) دخــل المــــاء بيوت الجيزة ومصر القديمة وغرقت الروضة ، ولم يقع في هــذا النيـــل (موسم الفيضان) حظوظ (مرح) ولا نزهة للنـــاس كعادتهم ··· وذلك لاشتغال الناس بالهموم المتوالية ، وخصــوصا الخوف من أذى العســـكر (العثمـــانلى) وانحراف طباعهم وأوضاعهم ·· » صفحة ٢٠٩ ·

● « ومنها (من الأحداث) حضور الجمع الكثير من أهالى الصعيد ، هروبـــا من الألفى (الحاكم) وما أوقعه بهم من الجور والمظالم والتقـــارير (الفروض) والضرائب والغرائم ··· حضر ··· يتشـــكون مما أنزله على بلادهم وطلب متروكات الأموات (التركات) ··· وطلب استئصال ما بأيدى (الورثة) (مصـــادرة التركات) ··· (ومن الحوادث) كثرة تعـــدى العسكر بالأذية للعامة وأرباب الحـــرف ، فيأتى شـــخص منهـــم ويجلس عـــلى بعض الحوانيت ثم يقوم فيدعى ضياع كيسه أو سقوط شىء منه ، وان أمكنـــه اختـــلاس شىء فعل ، أو يبدلون الدنانير الزيوف (المزيفة) الناقصة النقص الفاحش بالدراهم الفضة قهرا ، أو يلاقشـــون (يجامعون) النساء فى مجامع الأسواق من غير احتشام

ولا حياء ... وانتشروا فى القرى والبلدان ففعلوا كل قبيح ، فتذهب الجماعة منهم الى القرية وبيدهم ورقة مكتوبة باللغة التركية ويوهمونهم أنهم حضروا اليهم بأوامر ، اما برفع الظلم عنهم ، أو ما يبتدعونه من الكلام الزور ،ويطلبون حق طريقهم مبلغا عظيما ، ويقبضون على مشايخ القرية ويلزمونهم الكلف (التكاليف) الفاحشة ، ويخطفون الأغنام ، ويهجمون على النساء ، وغير ذلك مما لا يحيط به العلم ... واذا انفردوا بشخص أو بشخصين خارج المدينة أخذوا دراهمهم أو شلحوهم (سلبوهم) من ثيابهم أو قتلوهم بعد ذلك . وتسلطوا على الناس بالسب والشتم ... وتمنى أكثر الناس ، وخصوصا الفلاحين ، أحكام الفرنساوية ... » صفحة ٢٠٩ ، ٢١٠ .

● « .. تفكك الجسر الكبير المنصوب من الروضة الى الجيزة ، وذلك من شدة الماء وقوته ، فتحللت رباطاته وانتزعت مراسيه وانتشرت أخشابه وتفرقت سفنه .. » صفحة ٢١٠ .

● « حضر القاضي الجديد من الروم (قاضى عسكر الرومى أى قاضى القضاة) ووصل الى بولاق ..

فأقام ثلاثة أيام وصحبته عياله وحريمه ‥ » صفحة ٢١١ ·

● « ‥ أحاطت العسكر (العثمانلى) بالأمراء (المماليك) ··· وباتوا بليلة كانت أسوأ عليهم من ليلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيس ، وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم ، وكان فى ظنهم أن العثملى يرجع الى بلاده ويترك لهم مصر ، ويعودون (هم) الى حالتهم الأولى يتصرفون فى الأقاليم كيفما شاءوا ··· (وقال المماليك عندما طلبوا منهم ترك مصر « كيف يصح هذا الأمر ، وقد دخلنا الى البلد (مصر) وملكناها ، فكيف نخرج منها طائعين » صفحة ١٠٢ ·

● « نودى بأن خراج الفدان مائة وعشرون نصفا ، وكذلك نودى برفع عوائد (مصاريف) القاضى والأفندى ··· وزاد على ذلك اهمال الأوراق ببيت الباشا لأجل العلامة (التوقيع) شهرين وأربعة ، حتى يسأل صاحبها وتحفى أقدامه من كثرة الذهاب والمجىء، ومقاسات (أنواع) الذل من الخدم والأتباع ، ودفع البقشيش والرشوة على التعجيل ، أو يتركها وربما ضاعت بعد طول المدة ‥ » صفحة ٢٢٢ ·

● « وقفت الأرنؤود (وهم من قبائل كانت تعيش في شمال اليونان وفى البانيا) لخطف .. الفلاحين .. ووقع منهم القتل فى كثير من الناس ، حتى فى بعضهم البعض . وغالبهآ لم يصم رمضان ، ولم يعرف لهم دين يتدينون به ولا مذهب ولا طريقة يمشون عليها (بل) اباحية ، أسهل ما عليهم . قتل النفس ... وأما ما فعله كشاف الأقاليم فلا تدركه الأفهام ولا تحيط به الأقلام .. » صفحة ٢٨٧ .

● « وارسلوا العسكر (العثمانلى) الى بيوتهم (بيوت المصريين) فجلسوا بها يأكلون ويسكرون ويطلبون من النساء المصروف ، خلاف الأكل الذى يطلبونه ويشتهونه ، وهو (المصروف) ثمن الشراب والدخان والفاكهة ، بل ويأتون بالقحاب معهم .. » صفحة ٣٢٩ .

هذى لقطات من شريط طويل ، وواقعات من تاريخ أسود ، عاش فيه المصريون وهم يئنون من المظالم ويضجون من المغارم ، وما من مجيب ! فلا حكومة ولا حكام ، ولا ادارة ولا اداريون ، لا شريعة ولا قانون ، ولا قضاء ولا قضاة ، بل عصابات من النهابين والخطافين والسفاحين وقطاع الطرق ، ومن ماثلهم ومن شاكلهم .

ونتيجة للمفاهيم الدينية الخاطئة فقـد ظن الناس أنه قضاء الله المكتوب عليهم وانه قدرهم المقدور من قديم الأزل ، فقعدوا عن أى مقاومة وسكتوا عن أى معارضة. وظلوا فى سـلبية شـديدة يرددون بأصوات خافضـة كسـيرة : يارب بتجلى ، اهلك العثمالى • وقد كانت أبواب السماوات موصدة ، فلم يهلك العثمالى الا بعد أن هلك المصرالى •

الثقافة السمعية والحملة الفرنسية

في أنشودة الجندول للشاعر المصرى على محمـــود طه ، والتى لحنها وغناها محمد عبد الوهاب ، بيت من الشعر له مدلول غاية فى الأهمية ، خاصة حينما يصدر عن شاعر مصرى ، ويغنيه عبد الوهاب ، فيصير نغمة على كل لسان ، يردده الكبير والصغير ، والمتعلم والجاهل ، والواعى والغافل ٠

يقول هذا البيت :

أنا من ضيع فى الأوهام عمره
نسى التاريخ أو أنسى ذكره !

فالشاعر ، والمغنى ، الذى يعبر عن روح الأمة ، ويكشف عن طبيعتها ، يفصح عن أنه نسى التاريخ ، أو أنسى ذكره ، فضـــاع عمـــره فى الأوهام ، بعيـــدا عن الحقائق ، ويمنأى من الواقع ٠

ومن يكن هذا شأنه ، فردا أو جمعا ، شخصا أو أمة ، فانه لابد وأن يجنح بأوهامه الى الخيال ، ويجمح بأحلامه الى الخبال ، فلا يتوافق مع الحقيقة أبدا ، ولا يتصادق مع نفسه قط . والسبب في هذا الجموح وذلك الجنوح ، في هذا الخبال ، وذاك الخيال ، هو عدم ذكر التاريخ ، وعدم الالتفات اليه وعدم التأسى به .

ما الذى أدى ويؤدى الى نسيان التاريخ ، وأفضى ويفضى الى الضياع فى الأوهام والشتات فى الأحلام !؟

لذلك أسباب كثيرة ، غير أن أهمها وأشدها ، فيما يتعلق بالمصريين ، وبالعرب ، وبالمسلمين ، ركونهم الى الثقافة الشفهية . فلقد قامت الثقافة العربية على الشفهية ، نتيجة لما كان عليه العرب من بداوة وبدائية ، ثم امتدت هذه الثقافة وانتشرت الى المسلمين الأوائل ، الذين كانوا عربا . ثم استمرت بعد ذلك الى الأجيال التابعة والتالية ، بحسبانها سنة الأولين ونهج التابعين .

لقد كان الأحرى بالعرب ، والمسلمين ، أن يعووا الفوارق الدقيقة والمهمة ، بين الثقافة الشفهية ، التى تنتقل من شفة الى أذن ومن شفة الى شفة ، بلا تحقيق

ولا توثيق ولا تدقيق ، وبين الثقافة العلمية التي تسرى من عقل الى عقل ، ومن فكر الى فكر ، في منهجية وتتابعية واطردية ومنطقية وتكاملية ، أساسها التحقيق والتوثيق والتدقيق ، وقوامها الالتزام في كل لفظ ، والانضباط في كل حرف ، والتحديد في أى معنى ، والوضوح في أى تعبير . حتى عندما بدأ عصر التدوين ، في القرن الثالث الهجرى ، فان الكتاب كتبوا ، والمدونين دونوا ، بالأسلوب الشفهى والنهج السمعى ، والوضع النقلى ، فكتبوا كما لو كانوا يتكلمون ، ودونوا كما لو كانوا يتحدثون ، وبذلك لم ينتقلوا بالكتابة من الثقافة الشفهية الى الثقافة العلمية ، الا في أعمال نادرة للغاية ، أغلبها الكتابات الفلسفية التى تأثرت في نهجها وفكرها بالفلسفة الاغريقية ، وخاصة مؤلفات أرسطو . والذى له دلالة خاصة في هذا الصدد ، أن لفظ التدوين ، الذى أطلق على العصر الذى بدأ فيه المسلمون الكتابة ، يعنى (هذا اللفظ) الجمع والترتيب ، وهو تصريف من لفظ الديوان الذى هو تصحيف للفظ الايوان الفارسى ، بمعنى المكان الذى يوجد فيه الكتبة وموظفو الحكومة (المعجم العربى الأساسى ، مادة : دون) . فالتدوين من

ثم ، كان يعني الجمع والترتيب ، ولا يعني الانشاء والتفكير •

عادة ما تكون الثقافة الشفهية ثقافة كل أمة في بداية نشأتها وبداوة سيرتها ، على أن تتجاوزها بعد ذلك الى الثقافة العلمية ، لتستبدل العقل باللسان والفكر بالآذان ، لكن الخطر كل الخطر أن تتجمد الأمة في ماض بدائي وتتحفر في تراث بدوى ، فيصير هذا وذاك حائلا دون الثقافة العلمية وحاجبا عن الرشد العقلي ، بما يلقي في مهاوى ومساوى الثقافة الشفهية •

فللثقافة الشفهية سلبيات كثيرة ، أهمها أنها ثقافة لفظية انشائية ، فخارية هجائية ، متخطفة متلفقة ، شكلية ظاهرية •

فهي لفظية انشائية من حيث انها تقف عند اللفظ وحده ، فتنمقه وتزوقه ، وتبقصه وترصه ، وتعني وتحتفي ، لكنها تفعل ذلك في حدود جملة واحدة أو في نطاق عبارة مفردة ، دون أن تتنبه للتركيب البنائي أو المعاني المتصلة أو المفاهيم المتكاملة • بهذا تنتهي الثقافة اللفظية الى جمل متراصة بجوار بعضها ، لا تتراكب ولا تتداخل ولا تتفاعل ، انما هي جملة بعد جملة

وراء جملة ، بلا أى توقف أو نتيجة أو نهاية ، وهو ما يعد من قبيل الانشاء ، أى توليف الألفاظ وتنسيقها في استرسال متواصل ، بما يعبر عنه في اللغة الانجليزية بلفظ Rhetoric أى اللغة المنمقة الطنانة التى تتسم بالمغالاة وعدم الصدق ، على حساب الفكر .

وهى فخارية هجائية من حيث انها تعتمد على التشدق الكلامى والتحذلق الخطابى ، الذى ينحدر بها الى التفخيم والتضخيم ، بالتفاخر والتظاهر ، من جانب الذات ، وبالهجائية والخصامية والهجومية والعدوانية فى خطاب الغير . وتظهر هذه الخصيصة واضحة فى الشعر العربى ، منذ عهد ما قبل الاسلام حتى اليوم ، اذ أن أهم وأخطر ما فيه هو ما يتصل بالفخر بالذات أو القبيلة أو الأمة ، وما يتعلق بالهجو للغير ، فردا كان أو قبيلة أو أمة .

وهى متخطفة متلفقة من حيث انها لا تحقق ولا توثق ولا تدقق ، وانما تعتمد على الاشاعات وترتكن على الحكايات ، فتتخطف نصا من هنا ونصا من هناك ، قولا من هذا وقولا من ذاك ، كلمة من موضع وكلمة من آخر ، خاطرة من جانب وخاطرة من عكسه ، كلمة من

قاتل وكلمة من خصمه ، وهكذا • ولأنها لا تستطيع البناء ولا تقدر على التركيب ، خاصة بين شوارد وعوارض ، فانها تلفق الأحاديث وترتق الروايات وتلصق الحكايات •

وهى شكلية مظهرية من حيث انها تعنى بالشكل دون المضمون ، وتهتم بالمبنى لا بالمعنى ، وتقف عند المظهر بعيدا عن الجوهر • ذلك بأن الطبيعة اللفظية لها ، والحقيقة الحرفية عندها لا تستطيع أن تتجاوز الخارجي الى الداخلى ، ولا يمكنها أن تتعدى الظاهرى الى الباطنى •

هذه الثقافة الشفهية التى ضربت بسوءاتها على المصريين ، وعلى العرب ، وعلى المسلمين ، هى التى أنستهم التاريخ ، مادام أنه من مقتضاها ألا يعرفوا ولا يفهموا التاريخ وأحداثه ، فى منهجية وتتابعية واطرادية ، بحيث تظهر الأحداث ومحدثيها ، والأسباب ومسبباتها ، واضحة جلية ، متوالية متتابعة تبين الحقائق ، واحدة بعد أخرى ، وشخصا تلو آخر ، لكنهم يعرفون منه تحطفات وتلفقات ، تظهر فى نوادر أو نكات أو أمثلة أو مقتطفات ، لا توضع فى

نطاقها التاريخي ، ولا تعرض في مجالهـا الزمني ، ولا تبدو في سياقها الطبيعي .

بهذا نسي المصرى ، والعربى ، والمسلم ، تاريخه، أو أنسي هـذا التاريخ ، فعاش في أوهام صنعتها له خيالات عليلة ، وهيأتها له خبالات كليلة ، مما انتهى به الى الضياع في الحياة والشتات في الذات .

ومن الخيالات العليلة والخبالات الكليلة أن المصرى لا يعرف حقائق التاريخ ودقائق الواقع ، بل يتصور هذا وذاك بالأوهام والاشاعات في صورة لم تحدث أبدا ولم تقع قط ، وبهذا فانه لا يستطيع أن يحكم حكما صحيحا على ماضيه ، ولا يستطيع أن يصل الى قرار سليم في حاضره .

فمما يشاع ويذاع ، كمـا لو أنه حقيقة ثابتـة مؤكدة ، أن مصر كانت تعيش ، في عهد الاحتلال العثماني ، عيشة سعيدة آمنـة ، تحقق فيهـا العـدل والسلام والرخاء ، نتيجة لتطبيق الشريعة الاسلامية واعمال الدين القويم ، حتى جاءها الاحتلال الغربى (الفرنسي ثم البريطاني) فبدل العدل ظلما ، والسلام حربا ، والرخاء جدبا . وتشـاع الاشـاعات وتذاع

الاذاعات ، دون أن يكلف أحد خاطره فيقدم دليلا على ذاك أو سندا على ما يدعيه ، ولا يرجع أحد بنفسه الى مرجع مهم ، مثل كتاب الشيخ الجبرتي ، المصرى الأزهرى العدل ، ليستوثق من الحقائق ويستجلى كل الدقائق ٠

(أ) فمما ذكره الجبرتي ، وورد في الفصول السابقة ، ما يقطع بيقين بأنه لم يكن يوجد في مصر ، قبل الحملة الفرنسية ، شعب بالمعنى المفهوم والمدلول الدارج ، ولم تكن توجد أمة متوحدة متجانسة ، بل كانت في مصر أخلاط من الناس متنافرة ، وأمشاج من الخلق متحاربة ، لا يجمعها جامع ولا يضمها هدف ٠ فكانت كل جماعة ضد الأخرى ، وكانت كل طائفة في حرب مع غيرها ، وكان كل فرد غارق في الجهل ، والأنانية ، لا يعنى بوالد أو بولد أو ببلد ، اذا ما حزب الأمر أو حلت كارثة ٠

فقد كانت في مصر آنذاك طبقة من المماليك (العبيد) الذين يجلبون من بلاد القوقاز والتركستان (التتار) وشركسيا وغيرها ، وهم بطبيعة الحال غرباء عن أهل مصر ، لم يعرفوا الاسلام من آبائهم أو من مجتمعاتهم ، وانما اعتنقوه على حرف عندما استقروا

بمصر · ولهؤلاء المماليك (العبيد) نفسية العبيد وأخلاق الدون ، وهو ما وصفه الجبرتي بنظرة نافذة ودقة بالغة ، فقال عن كبيرهم (مراد بك) ما يصدق على غيره ، من غلبة الهاجس والوسواس ، والخوف والجبن والتهور والطيش والتورط بالغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور ، غشوم عسوف ذميم ظلوم !!! (بنص ألفاظ الجبرتي على كثرتها وقسوتها) · وقد كان هؤلاء المماليك (العبيد) في صراع دائم مستمر مع بعضهم البعض ، على الامارة والسيادة واغتيال المصريين ونهب أموالهم · ومع ذلك لم يكونوا على كفاية في الحرب وشجاعة في القتال ، فانهزموا في ثلاثة أرباع الساعة ، واذا بهم يفروا من المعركة ويتخلوا عن المصريين ·

والى جانب هؤلاء المماليك جماعات من الشوام والمغاربة والأروام · وعدد قليل من مشايخ الأزهر لا يتكرر منهم الا أسماء الشرقاوى والمحروقي والبكرى، ولم تكن لهم رياسة على الناس ولا مكانة في المجتمع، بل كانت الغلبة دائما للغوغاء والأزاعر والحرافيش (الذين ليست لهم أسر ولا انتماء) ومن يصفهم الجبرتي بالحشرات (أى سفلة السفلة) · ولم يظهر

خلال الأحداث ، فى كل تاريخ الجبرتى ، وجود طبقة من المستنيرين العلماء الذين يعلمون المجتمع ويثقفون الناس ويشيرون بالرأى ويقودون الأمة • الى جوار هؤلاء ، وفى خارج المدن غالبا ، يوجد الأعراب الذين يعيشون على السلب والنهب وقطع الطرق وهتك الأعراض • وقد حرص الجبرتى على أن يورد فى شأنهم نص ما كتبه اليه صديق فر الى أسيوط فقال « الملاعين الأعراب الذين هم أقبح الأجناس وأعظم بلاء محيط بالناس» ، وهو وصف يتضح أن الجبرتى حرص على ابرازه دائما كلما ورد ذكر لهؤلاء الأعراب •

ونتيجة لتشتت الشعب وتبدد الأمة (ان كان ثمة شعب أو أمة) فان الناس هربوا فرادى ، منهزمين منسحقين ، بمجرد سماعهم بمقدم الحملة الفرنسية « لا يسأل أحد عن أحد ، بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه » كما يقول الجبرتى نصا • وما ان تركوا مصر (القاهرة) حتى كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد تلقفهم الأعراب الفلاحون فسلبوهم وانتهبوهم وهتكوا أعراض النساء ، حتى اضطروهم الى العودة من حيث هربوا ، وهم عراة حتى من ملابس تستر العورة •

(ب) ولم يكن في مصر عدل ولا أمن ولا سلام • ففي كل ما سلف بيانه في الفصول السابقة يظهر بجلاء أن الطرق بين البلاد كانت دائما مقطوعة من الأعراب (قطاع الطرق) ، وأنه لم يكن ثم ضمان للأمن أو السلام أو العدل لأى فرد من المصريين • فالجنود العثمانيون والمماليك وأتباعهم يقتلون من يشاءون دون سبب وبغير جريرة ، ويخطفون ما يحمله الناس ، ويهتكون الأعراض كيف شاءوا ، ويحتكرون أقوات الناس وطعامهم ، ويشاركون الأسر في المساكن ويفرضون عليهم الاتاوات ••• وهكذا • فمن الذى يأمن أو يسلم فى هذا المناخ الفظيع الشنيع !؟

(ج) وكانت وجهة نظر السلطنة العثمانية أن عسكرها أخذوا مصر بحد السيف ، ويتعين على المصريين أن يعاودوا شراء بلدهم من السلطان ان أرادوا ، ووافق هو على ذلك ، وهذا المفهوم هو ما صرح به القاضى الذى ولاه قاضى عسكر (الرومى) ، على ما سلف بيانه •

وكان هذا هو اعتقاد المماليك الذى صرحوا به عندما طلب اليهم العثمانيون ترك مصر بعد رحيل

الجيش الفرنسى اذ قالوا : لقد دخلنا الى البلد (مصر) وملكناها فكيف نخرج منها طائعين ؟

ومؤدى ذلك أن السلطنة العثمانية كانت ترى فى مصر غنيمة مملوكة لها بحد السيف ، وكذلك فان المماليك كانوا يرون أنها ضيعة مملوكة لهم ٠

فمصر ، على الحالين ، لم تكن بلدا مستقلا أو محتلا ، بل كانت غنيمة وضيعة ، وأبناؤها ملك للغانم وعبد للحاكم ٠

(د) ولم تكن الشريعة تطبق فى مصر آنذاك ، ولا كان التدين الصحيح معروفا ٠ ذلك أن لفظ الشريعة لم يرد فى كتاب الجبرتي الا على لسان نابليون وفي منشورات الفرنسيين ، ولا يوجد فى كل الكتاب، فى فترة ما قبل الحملة الفرنسية وأثناءها ، ما يدل على تطبيق أحكام الشريعة ، أو وجود فاعلية لها فى تعاملات الناس ، أو قيام علماء لها أو فقهاء فيها ، أو صدور كتب عنها ، ولم نقرأ على لسان أحد المشايخ رأيا يرجعه الى الشريعة أو فتوى يعتمد فيها على رأى فقهى ٠ ولم توجد محاكم شرعية ، ولا مدنية ، وانما كان يرأس القضاء قاضى عسكر الرومى ، أى قاض عسكرى غير عربى ولا مسلم ، وهو الذى كان يعين

القضاة بعد أن يحصل منهم على الرشاوى ، فيظلموا هم كما يشاءون ، ويصدروا الأحكام لمن يدفع أكثر ، اذ لم يكونوا مستقلين ولا كانوا يتقاضون مرتبات ثابتة من السلطة ، لأنه لم تكن توجد سلطة ولا كان ثمة تنظيم للقضاء أو لغيره ٠

أما عن التدين فقد كان شأنها الى حد ينحرف به عن صحيح الدين وصريح الشرع ٠

فالناس تمتهن المساجد فتلحقها بالأسواق القذرة، حيث الأكل والشرب والغزل ، والطبل والزمر والنقر ، والقاذورات « والعفوشات » ، وهم فى المساجد وفى غيرها ، يحرفون ذكر الجلالة (بنص تعبير الجبرتى) ، ويتكلمون بكلام محرف (عن أصل صحيح) يظنون أنه ذكر يثابون عليه ، ويتبركون ويتوسلون بشخص أبله ، يقدمون له الهدايا والنذور ، ويعبون من الهواء المحيط بقبره ليمتلؤوا من بركاته ٠ حتى قال فيهم الشاعر الذى أورد الجبرتى أبياتا من شعره ، يعنيها هو بغير شك ، ويقصد معناها دون مواربة ، فيصفهم بأنه « هكذا المشركون تفعل مع أصنامهم » أى انهم مشركون وعبدة أوثان ٠

ولا يرد على ذلك بأن ما سلف من أوصاف ووقائع يتصل بالعوام ويتعلق بالجهال ، وأنه كذلك استثناء

لا قياس عليه ولا تعميم له ؛ ذلك لأن الجبرتي لم يذكر هذا التبرير ولم يشر الى أن أغلب الناس على غير ذلك ، لكنه كان فيما يؤرخ يروى واقعات هى بذاتها نماذج لما يحدث في كل آن وفي كل مكان ، خاصة حين تقع فى المسجد الأم ، وهو المسجد الحسينى . يضاف إلى ذلك أن المجتمع ذى التدين السليم والشرع الصحيح لا يمكن أن يفرز واقعات كتلك ، ولا أن يسمح بظهورها أبدا .

والذى يؤكد أن تدين الناس كان شائها ، فضلا ، عما سلف ، ما كان قد بدا منهم من أفعال وسلوكيات .

(هـ) فلقد كانت الجموع (العامة والغوغاء وأخلاط الناس ، بلغة الجبرتى) تضج عندما سمعت أصوات القتال بين الفرنسيين والمماليك فى منطقة امبابة ، يرفعون أصواتهم بالصياح ، فيما يعبر عنه الجبرتى بتعبير صادق صحيح اذ يقول « وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم » . ونفس الأسلوب هو الذى كان يتبعه المصريون عامة ازاء مظالم العثمانيين ، اذ أنهم لم يقاوموا ولم يعارضوا ، وانما ظلوا طوال السنين يدعون الله ويقولون « يارب يا متجلى ، اهلك العثمالى » .

هذا الأسلوب الذى يكتفي بالقول بدلا من العمل هو أسوأ نتاج الثقافة الشفهية ، التى تعتقد بأن القول مكافىء للعمل ، وأن الكلام بديل عن الفعل . فما دامت قد قالت فقد فعلت ، وما دامت قد سمعت (اشاعة) فما سمعته وقع فعلا وحدث بالضبط !!

وفى التدين الصحيح ، فان القول لابد أن يقترن بالعمل ، والكلمة ينبغى أن تتحقق فى فعل . وفى القرآن (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) سورة التوبة ٩ : ١٤ . لكن الفهم الخاطىء للتدين يبطل العمل ويعدم الفعل . على تقدير أن هذا أو ذاك (الفعل أو العمل) لا يغير مقدورا ولا يبدل مسطورا . فكل شىء مكتوب عند الله فى لوح القدر منذ الأزل ، ولا سبيل الى تغييره أو تبديله ، فقد جفت الأقلام وطويت الصحف . واذا كان هذا صحيحا فلا يكون من الدعاء جدوى ، اذ أنه صراخ فى الهواء ، لا يؤثر ولا يغير ، مع أنه فى القرآن (وذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى) سورة البقرة ٢ : ١٨٦ . أما ان كان للدعاء أثر ، فان هذا الأثر لا يكون لا مع وجود عمل من الانسان . فالله سبحانه وتعالى ان أراد رسالة منه بعث نبيا بشرا ليبلغ رسالته ، وان أراد علما أو ابداعا خلق

انسانا ليصل الى العلم أو يحقق الابداع ، بعد معاناة منه ، ومشقة واجتهاد • والدليل على ذلك ، تلك الآية التى سلف بيانها (قاتلوهم يعـذبهم الله بأيديكم) • فالدعاء وحده ، بغير مجاهدة ومكابدة ، ليس من الفكر الدينى الصحيح •

(و) أما عن السلوكيات فان الجبرتى على الدوام يورد وقائع وسـلوكا لا يصـدر الا عن همج بلا دين ولا خلق ، ورعاع بغـير شرع ولا أدب • ينتهزون أى فرصة للقتل والسلب والنهب ، ويتبعون عورات الناس ويقطعون رأس صبية لأخذ ما على رأسها من حلى أو مصاغ ، ولا يحترمون كبيرا أو رئيسـا ، فهم يخـافون ولا يستحون ، هذا فضلا عن أنهـم لا يحفظون عهـدا ولا يقولون صدقا ، ولا يقيمون عدلا •

فبعد أن خمدت الحركة الثانية ضد الفرنسيين ، وجمع قائدهم العلماء والمشايخ وعاتبهم لأنهم أظهروا للفرنسيين المودة والمحبة وهم يضمرون غير ذلك ، لـم يقل أحد فى وجهه كلمة واحدة تعنى رفضه للاستعمار الفرنسى أو تأييده للحركة ضده ، فيجاهد ولو بالقول ، لكنهم كلهم أبدوا الاعتذار وكرروا الأعذار ، فاستحقوا احتقار القائد وازدرامهم • ولما فرض عليهم غرامة

مالية وتركهم يمنعهم الحراس من الخروج ، بال أكثرهم على ثيابه من الخوف والفزع ، وتمنى كل واحد منهم لو لم يكن شيئا مذكورا ، واستنجدوا بالأقباط (ووقعوا في عرضهم) ليتوسطو لهم لدى الفرنسيين · فهل هذا من الدين أو الشرع في شيء ؟ وهل يخلد أحد منهم تخاذله وجبنه ؟ ألم يعى أحدهم المعانى الحقيقية للكفاح ضد أى مستعمر وأى غاز !؟

وقد سلف بيان كتاب الشيخ السادات ، وهو من كبار المشايخ ، الى كتخدا الدولة العثمانى وفيه يقول : « ··· لقد نقضت عهدى (مع الفرنسيين) ··· وأطعت الظلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الثقلة (يقصد العثمانيين) فأعنتهم على البغى والجور ، وسارعت فى تنجيز (انجاز) مرامهم الفاسد على الفور ، من الزامكم الكبير والصغير والغنى والفقير اطعام عسكركم (العثمانلى) الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات ، وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات ، فكان جهادهم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى ··· الى آخره » · فهل من الدين فى شيء أن ينقض المؤمن عهدا قطعه على نفسه ، وأن يطيع الظالمين على ظلمهم ، وأن يعينهم على

اذلال النـاس والاضرار بهـم ، وفى اعمـال النهب والفساد ، ويسكت عن جهـادهم في المـلاهى وأماكن الموبقات ؟! وهل من الشرع في شيء ألا يحمى الشـيخ المسـلمين من المصـائب والدواهى وهـو يعـرف ذلك ويصـمت ، فلا يصـيح بالحق ولا يجهـر بالصـواب ولا يدعو الى الصلاح !! ؟

(ز) وقد قام العامة والغـوغاء بحـركتين ضـد الفرنسيين يبالغ بعض الكتـاب فى شـأنهما فيزعمون أنهم ثورتان ، مع ما سـلف من بيـان الجبرتى عنهما ووصفه لمن قام بهما ، وسفور رأيه فى عـدم الرضـا عنهما ، مما دعاه الى أن يردد فى شأن الحركة الثانيـة قول الشاعر ::

وذنب جره سفهاء قوم

وحل بغير جانيه العذاب

هذا فضلا عن استشهاده ، هو وصديقه الذى كتب اليه من أسيوط ، بآيات من القرآن الكريم تفيد خراب بيوت الظالمين ، بما يكشف عن رأيهما بأن الخراب الذى حل بالناس وبيوتهم ، اثر الحركة الثانية ، كان نتيجة ظلمهم وعقابا لهم من الله .

ومع ذلك ، وعلى فرض أن ما حدث ثورتان ، وليست هوجتان ، فان الثورة على المستعمر والغازى ضرورة لابد منها ، وواجبا على الشعب كله وعلى كل فرد فيه • لكن التساؤل لابد أن يثور عن سبب هيجان العامة على الفرنسيين الذين عاملوهم بالحسنى ، بشهادة الجبرتى نفسه ، وعدم ثورتهم على العثمانيين والمماليك ، وأتباعهم وأشياعهم ، مع أنهم فعلوا بالمصريين مالا يمكن أن يتصوره أحد أو يعتقد أنه حقيقة وواقعا الا بعد أن يقرأه فى كتاب الجبرتى • فما من رذيلة الا أتوها ، وما من مظالم الا أوقعوها ، وما من مفاسد الا اقترفوها ، مما سلف بيانه ، وأنف ايضاحه •

لا شك أن استكانة المصريين العثمانيين والمماليك كانت تعود الى الاعتقاد الدينى الخاطىء بأنهم مسلمون ، وأن سلطان العثمانيين سلطان المسلمين • فلا تجوز الثورة عليه ولا الاعتراض على حكمه (وهو الاعتقاد الذى ظهر جليا واضحا حين استصدر السلطان العثمانى فتوى من شيوخ الدين بأن محمد على وابنه ابراهيم خارجان على الدين مارقان من الشريعة ، يجوز قتلهما ، ثم عاد وسحب الفتوى ، وحين استصدر ذات

السلطان فتوى دينية ضد أحمد عرابي باعتباره خارجا عن الاسلام مادام قد خرج على السلطان وطالب بحق شرعي له ولغيره من المصريين) • يؤكد هذا المعنى أن المهيجين ضد الفرنسيين كانوا يصفونهم بالكفر ولم يصفوهم بالظلم • ومؤدى هذا الاعتقاد الديني الخاطيء أنه يسوغ لمن يدعي الاسلام ، ولو رءاءا ورياءا ، أن يرتكب كل الموبقات ويقترف كل المظالم ويجترح كل المفاسد • وهذا الاعتقاد الخاطيء هو الذى أدى الى القالة التى تردد بأنه « لا تضر مع الايمان معصية ، ولا تنفع مع الكفر طاعة » ، أى أن الأساس هو مجرد الايمان ، ولو ظاهريا ، بحيث يجوز لمن يدعيه بعد ذلك أن يفعل المعاصى والآثام والذنوب فلا يؤاخذ بها أو يساءل عنها ، فى حين أن غير المؤمن يعاقب ويجازى ولو فعل كل خير وأتى كل عدل وبذل كل خير • والحقيقة التى يؤكد عليها القرآن هي ضرورة اقتران الايمان بالعمل الصالح « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » سورة فصلت ٤١ : ٣٠ •

ان الفهم الديني الخاطيء يجيز الاستعمار والاستعباد والاستذلال لمن يشارك المسلم في دينه ، ولو

ادعاء ، دون أن يقرن هذا الايمان بصحيح العمل ، من عدل وفضل وخير وبر وبذل وعطاء واحسان ٠ ومن جانب آخر ، فان القرآن يدعو المؤمن الى عدم قبول الظلم ، سواء من مسلم أم من غير مسلم ، ويتوعد بالعقاب من يقبل الظلم ويسكت عن الاضطهاد ، على تقدير أنه هو الذى ظلم نفسه وهو الذى اضطهد ذاته (ان الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) سورة النساء ٤ : ٩٧ ٠ أى ان من يقبل الظلم على نفسه ويرتضى الافتئات على حقه ، يكون مهينا فى الدنيا وينال عقابا فى الآخرة ٠

(ح) وصف الجبرتى سليمان الحلبى قاتل كليبر قائد الجيش الفرنسى ، بعد نابليون ، بأنه (أى سليمان) أفاق أحمق ٠ والأفاق لغة ، هو من لا ينتسب الى وطن ومن لا يثبت على رأى واحد ٠ والأحمق لغة ، هو الأهوج قليل العقل ٠ وألمح المدعى الفرنسى فى المحاكمة الى أن سليمان الحلبى من أرباب السوابق (ولعل هذا هو ما دعا الأغا العثمانى الى استدعائه وتكليفه مهمة القتل) ٠ وقال سليمان فى اعترافاته أنه قبل القتل

لقاء مال يدفع له ووجاهة اجتماعيـة تضفى عليـه ٠ وحين ادعى أنه قتل كليبر مجاهدة ومغازاة ، فانه لم يذكر في ذلك سـببا دينيـا ولا سـندا شرعيا ٠ وقال مصـطفى أفنـدى الذى قضى ببراءته انه لا يعلم من القرآن الا « مشاديدة » أى أحـكامه الشـديدة ، وأن القرآن يذكر المغازاة (الجهاد) ، وأن من قتل كافرا يكسب أجرا ، غير أنه لا علاقة له بما يقوله القرآن في ذلك ، لأن شرف الفرنسيين من شرف الاسلام (بنص قوله) ٠

ويعني ذلك أنه لا سليمان ولا غيره ممن أدين معه أو برىء من الاتهـام كان يفهم معنى الجهـاد بأسانيد شرعية ، وانمـا تجرى فهومهـم فى ذلك على مجـرد السماع، وتقوم عقولهم فى ترديده على ثقافة الاشاعات، التى تدعى خطأأن من قتل كافرا يكسب أجرا ٠ وهـذه المقالة التى ظهرت فى محاكمة سليمان الحلبى ، والتى يرددها الجهال والبغاة ، هى التى أساءت ومازالت تسىء الى المسلمين ، وتقدم الى العالم صورة شائهة قاتمة عن الاسلام الذى يحمى نفس الانسان ، وفيـه (من أجـل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) سـورة المائدة ٥ : ٣٢ ٠

سليمان حلبي هذا ، الأفاق الأحمق ، والقـاتل المأجور ، الذى لم يذكر آية واحدة من القرآن أو قاعدة واحدة من الشريعة تبرر فعلته ، هو الذى صوره البعض بطلا من أبطال العرب ورمزا من رموز مصر ، فأطلق اسمه على شارع مهم فى وسط القاهرة ، بينما أهملت أسماء كثيرين من المصريين والعرب ، ممن هم أبطال فى الحقيقة ورموز فى الأصل ونجوم فى الضمائر . فما هى العلة فى اضفاء بطولة زائفة على شخص آفاق أحمق ، وقاتل مأجور ، تجعل منـه رمزا فى ضـمير الأمة وفى نفوس الناس ، فتحيطه بهالة من الأكاذيب والافتراءات تمنع الناس من معرفة الحقيقة أو تصدمهم بشدة اذا ما عرفوا ولو بعضا منها ؟ ولماذا نعنى باضفاء هالات من البطولة وحالات من الفخامة على المهيج والمهرج، والمدعى والزاعم ، والمحرف والمزيف ، فنشوة التاريخ ونبلبل المعقول ونقلقل الضمائر ، الأمر الذى لابد أن يتـأدى بالأمة ويتطـرق بالنـاس الى أن يعيشـوا فى التزييف والتحريف ، ويحيوا بالأوهام والأحلام ، فلا يقـدروا على مواجهة الواقع ولا يسـتطيعوا اسـتيعاب الحقيقة ، فاذا استفاق منهم أحد أو استرد وعيـه شـخص، ردد ما قاله الشاعر « أنا من ضيع فى الأوهام عمره . نسى التاريخ أو أنسى ذكره » !

الحملة العسكرية والصدمة الحضارية

تشير وقائع الأحوال ، وتفيد شواهد التاريخ ، أن الفرنسيين كانوا قد غزوا مصر ليستقروا فيها ، وهذا شأن الغزاة . ووضع كل من غزا مصر قبل الفرنسيين ، كالعثمانيين والعرب والرومان والاغريق والأشوريين والفرس . فلقد كان هناك صراع بين فرنسا وانجلترا ، منذ سنين بعيدة قبل الحملة الفرنسية على مصر . وفي سبيل الغلبة في هذا الصراع ، التفتت كل منهما الى منطقة الشرق الأوسط ، وبلاد الشرق الأقصى ، والقارة الافريقية ، وهي نظرة عالمية ، بتقدير ذلك العصر ، الذي كان يستبعد الأمريكتين من خارطة العالم ، لأكثر من سبب . وكانت السلطنة العثمانية قد ضعفت وغلب عليها الوهن ، فبدأت كل من فرنسا وانجلترا في السباق لاغتنام أملاك السلطنة في الشرق الأوسط . سارعت فرنسا بغزو مصر ، على أن يكون وجودها فيها قاعدة تنطلق منها الى بلاد الشام

حتى حدود السلطنة العثمانية شرقا ، وتندفع منها الى بلاد المغرب العربى حتى ســـاحل المحيط الاطلسى (أو الأطلنطى) غربا ، وتتوثب من ثم الى بلاد غرب أفريقيا . جنوب الشمال الافريقى الذى تتكون منـه بلاد المغرب العربى . ودخلت انجلترا السباق بسرعة ، وخاصة مع خوفها من أن يؤدى الاستقرار الفرنسى فى مصر الى قطع الطريق عليها فى الوصول الى الهنـد ، جوهرة التـاج البريطانى ، وبلاد الساحل العربى المتاخمة لها ، والتى كانت تكـون ســاحل عمان ، وصـــارت دولة الامارات العربية وسلطنة عمان وامارة الـكويت . وفى سبيل الغلبة على فرنسا فقـد تعاونت انجلترا مـع السلطنة العثمانيـة لمحاربة الفرنسيين واخراجهـم من مصر ، وأرسلت أسطولها الذى حطم الأسطول الفـرنسى فى موقعة أبى قير فى أغسطس سنة ١٧٩٨ ، مما أدى الى انحصار الجيش الفرنسى فى مصر ، وسهل بعد ذلك أمر خروجه منها ، خاصة لاحتياج فرنسا ، فى عهد نابليون ، الى جنودها لدعم انتشارها فى أوروبا .

غير أن عجلة الغزو والاحتلال لبلاد الشرق الأوسط ظلت تدور بين انجلترا وفرنسا ، حتى استقرت بعـد اتفاقية سايكس بيكو ســنة ١٩٠٤ ، فصـــارت انجلترا

تحتل مصر والسودان ، وهما بلد واحـد ، وفلسطين (واقعيا ثم انتدابا من عصبة الأمم) باعتبار أنها (أى فلسطين) هى الجناح الشرقى لمصر • بينما أصبحت فرنسا تحتل بلاد الشام (سوريا ولبنان) وبلاد المغرب العربى (تونس والجزائر ومراكش الذى تغير اسمها الى المغرب) • ومن هذه المنطقة تابعت فرنسا احتلالها لبلاد غرب أفريقيا ، التى مازالت ـ بعـد تحـررها ـ ترتبط بفرنسا بأهم رابط ، وهو اللغة الفرنسية التى صارت لغتها ، ودخلت بها فيما يسمى بالفرانكوفونية ، أى مجموعة البلاد التى تتخذ من اللغـة الفرنسية لغـة أولى ، فتكون هذه اللغة لسانها وبيانها •

اتخذ الاستعمار ، أو الاحتلال الأوروبى شـكلا جديدا ، يناسب عصره ويمهد له سبل المستقبل • فلقد كان الغزاة من قبل يعملون عـلى هزيمـة جيش البلد المغزو ، ولو فى موقعة واحدة ، فتصـبح البلد أمامهـم مفتوحة ، ومن ثم يعينون فيها حاكما أو أكثر منهم ، ويتركون فيها حامية عسكرية من جنودهم ، توطد سلطة الحكم ، وتكون قادرة على ضرب أى معارضة أو مقاومة لها ، فتستمر فى نهب أموال الشعب المحتل وتسـخيره فى تحقيق أهدافها ، بعد أن تجرده من أى قوة ، وتمنعه من تكوين أى فرق عسكرية • وبغير الذهاب بعيـدا ،

فإن الجيش العثماني ، وهو جيش الاحتلال السابق والمعاصر للحملة الفرنسية ، هزم جيش المماليك بقيادة طومان باى فى موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ ثم دخل مصر • فدانت له ، وحولها الى ايالة عثمانية (أى ملكية آلت إليه) ونقل الخلافة منها الى الأستانة ، ممن قيل إنهم عباسيون الى من سموا بالعثمانيين، وهم فى الأصل قبائل تتارية • ونهب سليم الأول كثيرا من كنوز مصر ، وتحفها وآثارها الاسلامية ، كما امتص منها دماء المهارة ومياه الحضارة ، فنقل الى الاستانة ألفا من مهرة الصناع ، الذين كانوا يحملون العلم والفن ، وكانوا يمثلون التقنية (بالمفهوم العصرى لهذا اللفظ) • وحكم العثمانيون عن طريق وال يعين من الاستانة كل عامين ، بينما كانت مقاليد السلطة فى يد المماليك • وضربت على مصر الجزية ، فظلت تدفعها حتى سنة ١٩٥٥ (بطريق الخطأ) تحت اسم الصدة •• واعتصر الاحتلال العثمانى والعسف المملوكى قوى مصر والمصريين حتى أدى الى الحال التى يصفها الجبرتى ، من إنحطاط وضعف وجهل •

ومع أن الجبرتى شيخ أزهرى ابن شيخ أزهرى ، أى انه من علماء عصره ، ان لم يكن أعلمهم ، فقد بدا ،

عليه الانبهار وظهر عليه الاندهاش بكل ما قدمه الفرنسيون • وكان هواه — على ما يظهر من كتابه — ضد العثمانيين والمماليك، بل وضد الغوغاء والحرافيش والأزاعر ومن سماهم الحشرات (أى سفلة السفلة) ، ممن يقال انهم العوام أو العامة ، وهم أكثر الناس •

واضح الأمر أن الفرنسيين قبل أن يغزوا مصر كانوا قد درسوها جيدا ، فتعرفوا الاقليم ، ودرسوا طباع الشعب وأثر التدين فيه وعليه ، ورسموا خططا شاملة متكاملة للقرار فيه • منها اعادة تخطيط القاهرة ، وانشاء كبار على النيل ، وتأسيس ديوان من المشايخ لادارة شئون الحكم (يتسلف مجلس الوزراء) ، واجراء مسح شامل للبلد ماديا واجتماعيا (هو ما قام به علماؤهم الشبان فى كتاب وصف مصر) ، وشق القنوات وتطهير الخلجان (ومن ضمن ذلك اعادة فتح القنوات التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، وهى التى تطورت الى حفر قناة السويس) ••• والى غير ذلك •

فى حين أن الفرنسيين كانوا دارسين ومستعدين ومستعدين لغزو مصر والقرار فيها ، فان المماليك ، والعثمانيين ، كانوا فى غفلة كاملة وسلبية تامة وجهالة مطبقة • ذلك أنهم لم يعرفوا شيئا عن فرنسا أو غيرها ،

ولم يصلهم أى خبر عن الغزو الفرنسى ، ولم تكن لهم حامية فى الاسكندرية لصد الغزو ، ولا مواقع فى الطريق الى القاهرة لتعويق الغزاة ، ولم يخرجوا لملاقاة الجيش الفرنسى خارج القاهرة ، ولم يعرفوا أى شىء عن عدده وعدته وأفراده وعتاده ، ولم يرتبوا أى وضع لحال النصر أو حال الهزيمة ، وانما قعدوا ـ بغير همة ـ وهو ما تعجب له الجبرتى، الرجل المدنى غير العسكرى - مراد بك بعصابته غرب النيل فى منطقة امبابة (لأن الجيزة كانت خطته وحصته) ، وابراهيم بك بعصابته شرق النيل فى منطقة بولاق ، والمماليك المتجيشون بغير زى موحد ، ولا نظام عسكرى ، ولا ترتيب للحروب الحديثة ، فواجهوا الجيش الفرنسى كعصبة من الهمج أو زمرة من قطاع الطرق التى تهجم على قطار فى الصحراء ، أو تقطع الطريق على قافلة من التجار ، واذا بهم يواجهون ما لم يسمعوا عنه ولم يدركوا شأنه ، مما وصفه الجبرتى بدقة فقال « الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر من خلفه وأمامه (أى حاصر المماليك) ، ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية (الآلية) والمدافع ... بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ،

واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع الساعة ، ثم كانت ... الهزيمة على المسكر الغربى (فى منطقة امبابة) ، فغرق الكثير من الخيالة (الفرسان !!) فى البحر (نهر النيل) لاحاطة (حصار) العدو بهم وظلام الدنيا ... وفر مراد بك ومن معه » الى الصعيد ، بينما فر ابراهيم بك ومن معه الى بلاد الشام ، فلم يحاول ولو مجرد مناوشة الغزاة .

هل انهزمت مصر فى هذه الموقعة ؟ أبدا ! لقد انهزم المماليك الطغاة المستبدين . انهزم الجهل أمام العلم ، وانكسرت البداوة أمام الحضارة . أما المصريين، فما ان بدرت لهم البادرة وسنحت لهم السانحة ، بعد سنوات قليلة ، حتى فتح الجيش المكون منهم بلاد الشام واستخلصها من حكم العثمانيين وانتصر فى كل موقعة خاضها حتى بلاد اليونان ، ولم ينهزم قط أو يندحر أبدا ، الى أن طرق أبواب السلطنة العثمانية . ولولا أن تكالبت عليه القوى العالمية لدخل الاستانة واستعاد الخلافة وحكم البلاد التى كانت تحكمها السلطنة فى افريقيا وآسيا وأوروبا . فما بين هزيمة المماليك أمام الفرنسيين سنة ١٧٩٨ وبين سنة ١٨٢٣ (حيث تدخلت القوى العالمية) خمسة وعشرين عاما لا غير (٢٥ سنة) .

فما أعجبه وما أعظمه شعبا . استطاع خلال هذه المدة القصيرة أن يحقق كل تلك الفتوح والانتصـارات !! انه شعب ينتصر بالحرية وينهزم بالعبـودية ، ينسحق بالجهالة وينتفض بالحضارة ، وتلك سـمة العنـاصر السوية ، مهما أخـذ عليهـا أنهـا لم تقـاوم استعباد العثمانيين والمماليك لهـا . ذلك لأن قوى الاستعباد ركنت الى تفسير خاطيء للدين وعمدت الى تأويل مغرض للشريعة ، فشل هذا وذاك ارادة الناس وغل عقولهم .

ونتيجة للانحطـاط الاجتمـاعي والانحـدار العقلي ، فقد سقطت الأخلاقيات وتدنت السلوكيات . فعندما خشي الناس مغبة دخول الفرنسيين الى القاهرة بادر كثيرون بالهروب منها «فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقفتهم العربان والفلاحون فأخـذوا أمتعتهم ولباسـهم وأحمـالهم ، بحيث لم يتركـوا لمن صادفوه ما يستر عورته أو يسد جوعه ... وربما قتلوا من قدروا عليه أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وسلبوا ثياب النساء ، وفضحوهن وهتكوهن (أى هتكوا أعراضهن)» . فأهل البلد أو الوطن الواحد، أصحاب العقيدة الواحدة ، لم يغيثوا اخـوانهم وأهليهم ، وهم يفرون من الأجنبي الغازى ، وانما وجدوها فرصة ، كوحش تصيد فريسة،

فسلبوهم ونهبوهم وهتكوا أعراض النساء ، وقتلوا من حاول مقاومتهم أو شرع فى الهرب منهم ٠

وعندما أنس الناس الى الفرنسيين ، وتبينوا أنهم لا يأخذون السلع والبضائع غصبا ونهبا كما يفعل العثمانيون والمماليك ، وانما يدفعون ثمن ما يأخذون بالأسعار التى يشترون بها فى بلادهم ، وهى أكثر من الأثمان التى يتوقعها البائعون ، غالوا فى الأسعار ، ورفعوا فى الأثمان ، ثم زادوا فعرضوا على الفرنسيين شتى أنواع المآكل والمشارب ، فلما راجت سلعهم ، غشوا وأفسدوا ، فصغروا الخبز وعجنوا الدقيق بنخالته (أو بترابه ، كما يقول الجبرتى) ٠

وعندما أشيع أن الفرنسيين سوف يرحلون من مصر ، اثر اتفاقهم مع العثمانيين ، فى عهد كليبر ، وكما يقول الجبرتى فان « الرعايا وهمج الناس من أهل مصر ٠٠٠ استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيين بعين الاحتقار وأنزلوهم عن درجة الاعتبار ، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا فى عواقب الأمور ، ولم يتركوا معهم للصلح مكانا » ٠ وما ان عاملهم العثمانيون وجنودهم حتى ضجوا بالشكوى وأنوا

من المظالم ، وتمنوا عودة الحكم الفرنسى ، ذلك لأنه لم تحدث لهم مظالم ولم تقع عليهم مغارم أثناء هذا الحكم، فى حين أن وطأة الظلم وشدة العنت كانت وظلت تقع عليهم من العثمانيين والمماليك وجنودهم وأشياعهم •

وخلال مرتى الهيجان ، التى يقال انهما ثورتان ، بعث القائد الفرنسى برسائل الى المشايخ ، أعضاء ديوان الحكم ، فلم يرد عليه أحد • ولما وقع الضرب وتحققت الهزيمة سارعوا الى القائد يعتذرون له ويطلبون منه العفو

وكان كل من هذين الهيجانين بفعل الغوغاء والأزاعر والحشرات (بتعبير الجبرتى) بغير قائد يقودهم أو زعيم يسوسهم • وسرعان ما تحولت الى النهب والسلب والخطف فحل بالناس الكرب والبلاء والعذاب •

فهل يقوم أى عاقل بحركة ضد الغزاة ـ مع ضرورة المقاومة ـ بغير ترتيب ودون تدبير ، وبلا أى رياسة أو زعامة ، وبغير حساب للعواقب أو توقع للنواتج •

ان أى حرب دون اعداد ، هزيمة ماحقة ، يلحقها المحارب بنفسه وبلده • وأى مقاومة بغير ترتيب

هزيمة ساحقة ، ينزلها المقاوم بنفسه وبلده • وغالبا ما تجهض مثل هذه الهزيمة أو تؤخر أى اعداد آخر لحرب ناجحة أو مقاومة مجدية.فعالة ضد العدو • لكن الغوغائية الهوجاء لا تحسب الوقائع ولا تزن الأمور ولا تقدر النتائج ولا ترى العواقب ، فتندفع فى الهيجان السريع ، الذى يوقع بها الأذى الجسيم ، ثم تسكن سريعا ، كفورة تغور أو نار تخبو •

وهل يسوغ فى أى منطق ان تتحول الثورة ضد المحتل ، سواء كانت لها صبغة وطنية أم كانت عليها مسحة دينية ، الى العدوان على المواطنين الأبرياء بالسلب والنهب والخطف وهتك الأعراض ؟

ويقال دائما ان الحملة الفرنسية أحدثت فى مصر . وفى المشرق العربى ، صدمة حضارية ، وينكر البعض ذلك ، ويدور الكلام اثباتا أو نفيا ، ايجابا أو سلبا فى صورة مرسلة وهيئة مطلقة ، دون تحديد الأدلة وبغير بيان المراجع • لكن الذى يستفاد من كتابات الشيخ الجبرتى ، المصرى الأزهرى العدل ، أنه كان يستغرب ويندهش لأشياء كثيرة ، نراها حالا (حاليا) ولا ندرك مدى ما كانت عليه من جدة ومدى ما أدت اليه من تغيير • فمما قدمه الفرنسيون :

١ ــ تأسيس ديوان للحكم من كبار المشايخ ، هــو ما أصبح يسمى بعد ذلك مجلس الوزراء •

٢ ــ انتخاب رئيس هذا الديوان بدلا من تعيينه • وهذا الانتخاب بتحرير أوراق بالرأى كان غريبا جدا على الجبرتى ، حتى انه سماه القرعة ، لغرابته وعدم وجود اسم دارج له فى اللغة العامة المستعملة آنذاك •

٣ ــ ضبط الأملاك والأعمال والأوقاف ، وتحديد الضرائب بأسلوب منظم عام وقواعد محــددة معــروفة للجميع •

٤ ــ انشاء محــكمة ، ســماها الجبرتى ديوانا ، ووضع نظام لادارة الجلسات واثبات أقوال الخصوم •

٥ ــ ارساء مبدأ استقلال القضاء ، بمنح أعضاء الديوان والقضاة والموظفين والسعاة مرتبات مجزية ، مجزية ، تمنعهم من الرشوة أو أخذ الجعول •

٦ ــ قيد أسماء المواليد والوفيات •

٧ ــ اثبات عقود الزواج فى دفاتر رسمية •

٨ ــ الاخطــار عن الغرباء والأجانب فى مدى ٢٤ ساعة •

٨ ـ دفن الموتى فى مقابر بعيدة ، بدلا من دفنها فى مقابر داخل المساكن أو على مقربة منها •

٩ ـ الزام النـاس دفن الموتى فى حفـر عميقة ، بعيدا عن سطح الأرض •

١٠ ـ الزام الناس النظافة من كنس ورش وتبخير ووضع الفراش تحت أشعة الشمس على الأسطح لتهويته وتنقيته •

١١ ـ تخطيط القاهرة بانشاء طرق واسعة تصـل من وسطها الى أطرافها •

١٢ ـ انشـاء منتزهات عامة ، هى التى تطـورت فأدت الى انشاء حديقة الحيـوان وحـديقة الأورمان ، وغيرها •

١٣ ـ اقامة كبار على النيل بطريقة فنية هندسية، تربط البر الغربى (القاهرة) بالبر الشرقى (الجيزة)• وقد انهارت هذه الكبارى بعد رحيل الفرنسيين فلم يعد العثمانيون انشـاءها ، حتى تم ذلك فى عهـد أسرة محمد على •

١٤ ـ اقامة مكتبة عامة بها كتب فى كل العلـوم والفنون ، وخرائط لكل أنحاء الكرة الأرضية •

١٥ ـ انشاء المجمع العلمى ، ووضع جميع فروعه فى منطقة واحدة ٠

١٦ ـ استعمال آلات حديثة ، كالعربة الصغيرة التى تنقل عليها المواد والأشياء بدلا من وضعها فى القصاع (جمع قصعة) تحمل على الرءوس ٠

١٧ ـ استخدام موائد عالية عند تناول الطعام ، بدلا من الطبليات (جمع طبلية) أو افتراش الأرض ٠

١٨ ـ استخدام أدوات دقيقة الصنع فى العمل العادى (فئوس و «قزم») مما يفيد أن المصريين كانوا يستخدمون أدوات رديئة الصنع ٠

١٩ ـ استخدام قواعد مستخرجة من علم جر الأثقال لانقاذ سفينة غارقة ٠

٢٠ ـ استخدام البارود فى الهدم ٠

٢١ ـ وجود زى موحد للجنود ٠

٢٢ ـ تدريب الجنود على فنون القتال ٠

٢٣ ـ استخدام الطبل والموسيقى بأنغام مختلفة ، فثم دق للحرب وثم نغم جنائزى حزين عند تشييع جنازة كليبر ٠

٢٤ ـ انشاء محكمة لمحاكمة سليمان الحلبي ، وعدم قتله فور اعترافه ، بما في هذه من اجراءات ، ومرافعة محام معين من الفرنسيين للدفاع عن المتهمين ، ومداولة القضاه ، واعلام المذنبين بالحكم بعد ادانتهم .. الى غير ذلك .

٢٥ ـ اتباع النشر كوسيلة لاعلام الشعب بالقرارات والأحكام ، ولم يقتصر الأمر على المناداة بذلك ، بل نشرها بطريقة واضحة منظمة .

٢٦ ـ استعمال المطبعة .. الى آخر ذلك .

أما ما لم يستوعب الجبرتي معناه ، ولم يتمثل نتائجه ، فهو كثير ، منه توجيه الخطاب الى المصريين عامة ، بدلا من توجيهه الى طائفة دون طائفة أو فئة دون فئة ، وهو فهم جديد في وقته ، كان يوطئ لعودة الأمة المصرية ، التى شرذمها الاستعباد العثمانى وهرأها الاستذلال المملوكى . ومنه قاعدة انتخاب الحكام عموما ، بما يجعل للشعب حقا فى هذا التعيين ، وما لابد أن يؤدى اليه ذلك من حق مساءلة الحكام وعزلهم . ومنه تقرير مبدأ المساواة بين المواطنين ، وهو أساس قيام الدولة المدنية التى تنبنى على حق المواطنة

لكل فرد من أفراد الشعب ، ومساواته مع جميع المواطنين في الحقوق والواجبات ٠

هذه العناصر الحضارية ، من مادية ومعنوية ، كانت آفاقا جديدة وأنوارا مبهرة وحوافز مثيرة ، هي التي هزمت عصابات المماليك ، ومهدت الطريق أمام مصر لدخول الحضارة من أوسع أبوابها ٠ هذا بالاضافة الى اكتشاف الحضارة المصرية ، وهو كشف جليل بكل المعايير ، وضع لمصر مكانة عظمى في التاريخ الانساني وجعل لها مكانا مميزا في عقل وقلب ووجدان كل فرد في كل أنحاء العالم ٠

وتبدو العظمة الحقيقية لمصر والمصريين ، في أن البلد التي كانت ايالة ، أي ضيعة ، مملوكة للعثمانيين وأذنابهم من المماليك العبيد ، صار بعد حوالى ٢٥ عاما ملأ السمع والبصر ، وبلدا فعالا مؤثرا في الوضع السياسي العالمي ، ولم يزل كذلك حتى الوقت الحالي ٠ كذلك فان الشعب الذي كان قد تبدد شيعا وتفرق طوائف ، وصار مجاميع ضالة من الغوغاء والأزاعر والحرافيش ، قد تحول في سنوات قليلة الى أن يصبح شعبا موحدا متميزا ٠ ففي أواخر القرن التاسع عشر ، وحتى منتصف القرن العشرين كان أبناء هذا الشعب

يصنعون الحضارة ويقدمون الاستنارة ، كمنارة عالية وشعلة وهاجة لكل العالم العربي والاسلامي ، وكانت طبقة المثقفين لا تقل عن مثيلاتها في أي بلد أوربي مثل فرنسا وانجلترا وألمانيا . فكان أبناء مصر هم أفضل الأطباء والكتاب والقضاة والفقهاء والمعلمين والموسيقيين والمغنيين والمحامين والصحفيين والمهندسين والمفكرين ، بحيث أسهموا في تشكيل كل عقل عربي وساعدوا في تكوين كل عقل في العالم الاسلامي، على ترامي أبعاده .

وبعد ١٢٠ عاما من الفتن والهياج الذى حدث أيام الحملة الفرنسية انتفضت مصر شعبا واحدا ثائرا واعيا ، في ثورة ١٩١٩ ، الثورة الحقيقية الشعبية في تاريخ مصر ، فوضعت أسس الوحدة الوطنية ، والدولة المدنية ، وحكم القانون الذى تأدى الى وضع دستور ١٩٢٣ . وقد كان أثر هذه الثورة بعيدا فعالا ، حتى قال المهاتما غاندى : لقد تعلمنا الثورة من مصر (يقصد بأسلوبها الواعي الدقيق الذى جمع كل الأمة في نسيج واحد بغير تفرقة بين مسلم وقبطي) . ويبدو الأثر الأخلاقي لهذه الثورة في حالات الايثار واتجاهات التضحية التي هيمنت على الناس جميعا ، فقد كان كل فرد يقدم نفسه ضحية وهو سعيد ، مادام أنه بدمائه

يفتدى حرية وطنه وحرية مواطنيه . ومهما كانت لثورة ١٩١٩ من مثالب ، فانها كانت بوتقة ممتازة صهرت الشعب نفسه كله في وحدة واحدة ، وأسفرت عن معدن ممتاز ، فاتجه الشعب نفسه الى صنع الحضارة ، بعيدا عن حلبة السياسة وحومة الحزبية ، مع أنهم شاركوا في هذه وتلك بالعرق والدم .

ان بعض الناس أعلنوا أنهم صلوا لله فرحا وشماتة في هزيمة مصر ١٩٦٧ ، بقالة أن هذه الهزيمة كانت هزيمة للماركسية التي كانت تعضد وتساند نظام الحكم في مصر ، في محاولته للصراع مع الغرب واسرائيل . وهذا المفهوم الخاطيء بلا شك ، والذى يصلى لله لهزيمة وطنه ومصرع آلاف الضباط والجنود ، وخسارة مليارات الجنيهات التي دفعها الشعب من ماله ليشترى بها الأسلحة والطائرات التي تحطمت في المدارج أو تركت في الصحراء ، هذا الاتجاه هو الذى يتباكى على هزيمة المماليك أمام الجيش الفرنسي . مع أنه اذا كان الفرنسيون مستعمرون فان المماليك والعثمانيين كانوا مستعبدين . ومع أن كلا من الاستعباد والاستعمار بلاء شديد يتعين على الشعب أن يحاربه ويكافحه طوال الوقت وفي كل مكان كان ، الا أن دموع التماسيح

تتباكى أسفا على الاستعباد ، لأنه كان يستظل بالدين ، وتتشاكى أسى من الاستعمار لأنه كان من رياح غربية ٠

لن تعرف مصر الحقيقة ، وتتفاعل مــع روحها ، الا اذا قيمت المسائل بموضوعيــة وعقلانيــة ، فتركت انفعال الدروشة الى اتزان العقل والخلق ٠ فتدرك مع ثم أن الاســتعباد والاســتعمار ضـــد الدين والشرع والانسانية ، فترفض هذا وذاك ، وتعمل على تحــرير نفسها بالعلم والأخلاق والانسانية والحضارة ٠

من الأمس حتى الغـد !

لا يمكن تغيير وضع الا بعد معرفة كل الحقـائق عنه • ولا يمكن تعديل وصف الا اثر تحرى كل الأسباب المتعلقة به • وبغير معرفة الحقـائق ، ودون تحـرى الأسباب ، يتعذر ، ان لم يكن من المستحيل ، أى وصول الى علاج أو تصحيح أو تعديل علمى مفيد منتج فعال •

مقتضى ذلك كشف تاريخ الموضوع ، وتحليل كل أسبابه وعلاقاته وتطوراته ، حتى يتحدد التوصيف ، أو التكييف ، أو التعـريف ، فينجبح من ثم أى علاج أو تصويب أو تغيير • ففى العصر الحالى ، لا يقطع الطبيب بالعلاج الا بعد الاطلاع على نتائج التحليلات المعمليـة المتكاملة للمريض ، بحيث يستطيع تحديد الداء ، ثم وصف الدواء • ورجل القانون ، عامة ، لا يمكنه أن يصل الى الحكم الصحيح فى أى نزاع الا بعد تكييفه ، أى وضع الوصف القانونى له ، الذى يصل به الى الحل الأمثل •• وهكذا •

من هـذا المعنى ، فان التحليـل العلمى الواقعى الصحيح للتاريخ ، يكون ضرورة لا صارف عنها لاحداث أى تغيير فعال فى الحاضر • وعلى العكس من ذلك ، فان الغش والتحايل والخداع فى عرض الماضى ، أو ابتسارة أو اختصاره ، يؤدى الى التحريف والتزييف فى حقيقته ، بما يحول دون أى تصحيح للمساوىء التى يسقطها على الحـاضر ، ويمنع أى تجنيب للمخـاطر التى تؤثر فى أحداث الواقع •

العلم يعرف حالا (حاليا) ، بل ويؤكد ، وجـود ارتباط شديد بين حلقات الماضى والحاضر والمستقبل ، وقيام تأثير واضح بين الأجداد والآباء والأحفاد ، وظهور حلقات متواصلة بين الأمس واليوم والغد • ودراسـة تاريخ مصر دليل علمى واثبات يقينى على أن السلوكيات القديمـة لم تزل تجـزى فى المجتمـع ، وأن التراثات السالفة ممتدة الى الحاضر وفعالة فيه • ويعنى ذلك أن تكون دراسة التاريخ ، بحياد وأمانة ، مدخلا لازما لفهم الواقع والتأثير فى الحاضر ، وامكان تشكيل المستقبل •

ومما سلف سرده من واقعات يؤرخ لها الشـيخ الجبرتى ، نتخير بعضا منها يترابط بالحاضر ويتداخل

فيه كى ما يتبين مدى التشابه ، ويظهر وجه التأثير ، ويعرف سبيل التغيير ، ان أريد تغيير صحيح ٠

(أ) فالفرنسيون كانوا يعرفون الكثير جدا عن مصر والمصريين ٠ فقد كان تجار منهم يترددون عليها للتجارة ، لكن الراجح أنه كان مع هؤلاء التجار أو من بينهم متخصصون فى دراسة الشعب المصرى ، ودراسة مصر ذاتها ٠ وسواء قيل عنهم انهم علماء أو ساسة أو جواسيس أو مستشرقين ، فالنتيجة واحدة ، هى أنهم (والانجليز كذلك) عرفوا الكثير عن مصر والمصريين ، مما سهل لهم تنفيذ أغراضهم والنجاح فى تحقيق أهدافهم ٠ أما المصريين ، والعرب كذلك ، فقد كانت لديهم ، ومازال عند الكثيرين منهم ، حالة من الانكفاء على الذات والانحصار فى النفس ، تجعلهم يضخمون جدا من ذواتهم وأنفسهم ، وينفون الغير تماما ، كأنه لا يوجد أبدا ، ولم يوجد قط ٠ فقد كانوا يعممون الوصف على الغربيين فيقولون انهم الفرنجة (الافرنج)، دون تحديد بلادهم وأجناسهم وشعوبهم ، وبغير دراسة علمية متواصلة لكل فرع منهم ٠ فلا توجد دراسات استغرابية (أى للغرب) على غرار دراساتهم الأستشراقية (أى للشرق) ٠ والمعلومات عن بلاد الغرب

والغربيين مهوشة مشوشة ، هى تراكم اشاعى ، وتناقل سماعى • وحتى الآن ، فان الكثيرين يرفضون دراسة الشرائع اليهودية والمسيحية وغيرها ، ويحكمون عليها بغير علم • ومع وجود اسرائيل على حدودنا الشرقية ، لا توجد أكاديمية لدراسة تاريخها وشعبها وأحزابها وكيفية التأثير عليها ، فى حين أن كثيرا من الاسرائيليين متخصصون فى اللغة العربية والشريعة الاسلامية والحياة المصرية •• وهكذا •

هذا الجهل بالغير ، وذلك النفى للآخر ، مما يخيل معه للمصريين والعرب أن الآخر غير موجود وأن الغير ليس مؤثرا ، فاذا ما فوجئوا بالحقيقة اضطربوا واختلطوا ، وذهبوا مذاهب شتى ، ليس منها مذهب واحد صائب أو سليم •

فى العصر الحالى ، وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية ، شاع بين المصريين أن ايطاليا ليست الا جزمة (أى حذاء) • وكانوا فى ذلك يخلطون بين شكل الأراضى الايطالية ، التى هى أشبه بساق يمكن وصف قدمه بالحذاء أو الجزمة ، وبالحذاء ذاته ، أو الجزمة ، وهو وصف يقصد به تحقير الايطاليين والتهوين من شأنهم-

.. وعندما كنت تلميذا في رياض الأطفال قال لنا مدرس عن باريس ، التي كان الألمان قد احتلوها ، انها مدينة ساحرة ، شوارعها من البلور ، وهي شوارع تتحرك من مكان الى آخر . وقد جهدنا كأطفال في أن نتصور ذلك فذهب بنا التخييل والتخليط كل مذهب شارد ، مع أن الأسلوب التربوى الصحيح يعنى بأن يقدم الى الأطفال معلومات حقيقية ، ومفاهيم صحيحة ، وأن يثير خيالاتهم بصورة علمية بناءة ، حتى تتكون لهم عقول سوية وتتشكل لديهم ملكات صحية . وبعد مرور أعوام طويلة ، وعندما زرت باريس أول مرة ، تذكرت ما قاله لنا ذلك المدرس ، فأدركت أنه وغيره ، خلط المجاز بالحقيقة ومزج التشبيه بالواقع. فلابد أن بعض من زار باريس من أبناء مصر فى العشرينيات والثلاثينيات رأى شوارعها نظيفة لامعة ، بالمقارنة بشوارع وحوارى القاهرة وغيرها ، فقال ان شوارع باريس بلور . لكن الذى سمع لم يدرك أن لفظ بلور هذا تشبيه وليس حقيقة ، وأنه مجاز وليس واقع ، فتكلم ، بل وبث فى عقول الأطفال ، معنى مخلوطا وفهما مغلوطا . وهذا وحده مثل مادى واقعى صحيح لسوء التقدير فى فهم الغير . أما الشوارع التى تتحرك فى باريس ، فانها ممر طويل (فى محطة مترو

مونبارناس) يقف عليه الركاب فيسير بهم ، بقوة الكهرباء ، ليوفر عليهم الحركة • وهو أمر صار شائعا في أغلب مطارات العالم (كمطار كنيدى بنيويورك ، ومطار امستردام ، ومطار زيورخ وغيرها) • فالذى قال عن الممر انه شارع يتحرك أوقع في عقول السامعين أن شوارع باريس تتحرك ، مما ألهب الخيالات بأمور غير واقعية ومفهوم غير حقيقي ، قد تترتب عليها أفعال وأقوال ، تصير مثل بيوت من الرمال ، وتكون أقرب الى نسيج من الخيال •

(ب) جاء في تاريخ الجبرتي أن حكام مصر من المماليك لم يكونوا مستعدين للقتال أبدا ، ولم يتهيأوا للمعركة مع الفرنسيين ، ولم يضعوا أى ترتيب لحماية مصر من أى عدوان • فلم يقيموا في الاسكندرية حامية لصد أى عدوان ، ولم يرسلوا أى مقاتلين (لأنهم لم يعرفوا الجيش بالمعنى العصرى) لتأخير الجيش الفرنسى في الطريق الى القاهرة ، ولم يعرفوا عن هذا الجيش أى شيء يتصل بعدده أو عدته أو نظامه أو ترتيبه أو طريقته في القتال ، حتى ان الجبرتي وهو يصف معركة امبابة قال ان الفرنسيين تحركوا وفق نظام وترتيب لديهم ، بما يعنى أنه ، وهو العالم الأزهرى ، لم يكن

يعرف هذا الترتيب أو ذلك النظام ، واعتبر أنه خاص بالفرنسيين وليس هو الأسلوب العصرى للجيوش والقتال • وكان من نتيجة اتباع الفرنسيين نظاما علميا حديثا فى المعركة أنهم أحاطوا بالمماليك ، أى حاصروهم ، فهزموهم فى ثلاثة أرباع الساعة ، وسقط الخيالة (الفرسان) المماليك فى ماء النيل وغرقوا •

وهذا الذى حدث فى عصر الحملة الفرنسية ، من المماليك ، تكرر بعد ذلك فى التاريخ المصرى الحديث أكثر من مرة •

ففى سنة ١٩٤٨ دخل الجيش المصرى الحرب مع اسرائيل وهو يصفها بأنها عصابات ، مع أنها كانت تملك جيشا أكثر عددا وأفضل عتادا من كل الجيوش العربية • ولم تعرف البلاد العربية كلها ، بما فى ذلك مصر ، أى معلومة عن قادة الجيوش الاسرائيلية ، أو أسلحتهم ، او تعليمهم • ولم يكن لدى الجيش المصرى من الذخائر ما يصل به الى مدينة غزة ، واعتمد الحكام فى دخول الحرب على وعد من الانجليز ، غير مكتوب أو مؤكد ، بفتح مخازن أسلحة الجيش البريطانى فى الاسماعيلية أمام الجيش المصرى ، وهو ما لم يحدث • وفرح المصريون بتقدم قواتهم فى الأراضى الفلسطينية ،

مع أنه كان تقدما بغير قواعد ودون ثوابت ، فجعل الجيش مكشوفا ، يسهل قطع الامدادات عنه وحصاره ، وهو ما حدث بالفعل ٠

وفي سنة ١٩٥٦ ، وعلى الرغم من اجتماع قادة من بريطانيا وفرنسا واسرائيل في ضاحية سيفر خارج باريس ، وترتيب خطة حرب أكتوبر ١٩٥٦ ، فان مصر لم تعرف شيئا عن ذلك في حينه ٠ وقيل ان الملحق العسكرى في باريس أرسل الى القيادة السياسية ما يؤكد وقوع العدوان ، غير أنها لم تتأكد من ذلك الا عندما شاهد رئيس الجمهورية فوق سطح مسكنه طائرات بريطانية مهاجمة ٠

وفي سنة ١٩٦٧ كان أمر الحرب مؤكدا ، فان غلق الممرات البحرية الدولية يعتبر عملا من أعمال الحرب ، وقد أعلنت اسرائيل أن غلق مضايق تيران هو عمل من أعمال الحرب ضدها ، وشكلت وزارة حرب بالفعل ، بل وذكر رئيس الجمهورية المصرية أنه علم أن اسرائيل سوف تهاجم مصر صباح ٥ يونيو ، وأنه أخطر القادة العسكريين بذلك ٠ لكنه انصرف لحاله بعد أن أخطرهم ، فلم يطلب وضع خطة عسكرية ، ولم يأمر باتخاذ ترتيبات خاصة ، ولم يسهر للتصرف ازاء الهجوم الذى

كان متيقنا منه • ولم يتخذ القادة العسكريون أى احتياطات أو تدبيرات لاحباط الهجوم ، بل ان قائد الجيش كان يحلق بطائرته فى أجواء المعركة مما شل أجهزة الدفاع الأرضى عن ضرب الطائرات المغيرة على الطائرات المصرية الرابضة فى مدارجها • بل وقيل فى ذلك ان مصر كانت تنتظر العدو من الشرق فاذا به يجىء من الغرب ، وهو أمر غير صحيح ، مما يؤكد أن القيادة السياسية والعسكرية ، حتى يوم ١٠ يونيو ، لم تكن تعرف كيف حدث ضرب الطائرات المصرية فى مدارجها ، مما أنهى الحرب فى بضع ساعات ، كما انتهت مقاومة المماليك للفرنسيين فى ثلاثة أرباع ساعة • وما أشبه الليلة بالبارحة ، مادام أسلوب التفكير والتصرف واحد ، لم يتغير ولم يتبدل ، وانما صار نهجا دائما وأصلا مستقرا •

(حـ) ويقول الجبرتى ان عامة الناس كانون يقفون الى جوار ساحة المعركة فى امبابة وهم يصيحون ويصرخون ، وينص فى ذلك تحديدا « كأنهما كانوا يحاربون بصياحهم » • وهذا التصرف بالذات ، أخطر سلوك المصريين والعرب • فهم يعتقدون أن الصوت مكافىء للعمل ، وانه كلما علا الصوت فقد تأكد العمل،

ويذلك يصبح الصياح عملا لديهم ، ويكون الصراخ فعلا في تقديرهم .

فالمصريون ، والعرب ، حتي الوقت الحالى ، وإلى أن يغيروا أنفسهم ويبدلوا طبائعهم ، ظاهرة صوتية ، وعارضة لفظية ، ونازلة مرضية .

(د) ويقول الجبرتي ان المصريين لما رأوا الفرنسيين يسيرون بينهم بغير أسلحة ودون عنف أنسوا اليهم فعرضوا عليهم البضائع من دجاج وبيض وغيره . واذ تبينوا ان الفرنسيين يدفعون فيما يشترون أسعارا أعلى من السعر العادى ، قياسا على أسعار بلادهم ، اذا بهم (المصريون) يغالون في الأسعار ويرفعون في الأثمان ، وهو غش واستغلال وعدم أمانة . اضافة الى ذلك فان الجبرتي يقول ان بعض سيئى الخلق من المصريين خبزوا للفرنسيين الدقيق بترابه ، وصغروا فيه ، وهو ـ كذلك ـ غش واستغلال وعدم أمانة .

وهذا الذى حدث مع الفرنسيين ـ قبل قرنين ـ مازال يحدث من المصريين مع المصريين ، ذلك بأن كل الناس في مصر تشكو من غش الأغذية وغش الأدوية وغش الأقمشة وغش الحديد وغش الأسمنت وغش الموازين وغش المكاييل ، أى الغش في كل أنواع

الصناعات والمأكولات والمعاملات ، وهــو أمر لا سبيل لدفعه ولا طريق لعلاجه ، لعدم وجود نظام خلقى مانع وعدم وجود نظام قانونى رادع ، وثبات التراث السلفى المخادع ٠

فالمسألة فى الغش وعدم الأمانة متأصلة من قديم. كان التحضر قد أخفاها وكان القانون قد واراها ، فما ان ذهب التحضر وسقط القانون ، حتى عادت سيرتها وعاودت سنتها ٠

(هـ) ويقول الجبرتى انه ما ان سمع المصريون أن الفرنسيين سوف ينسحبون من مصر اثر اتفاقهم عــلى ذلك مع العثمانيين حتى أظهروا العداوة للفرنســيين وقلبوا اهم ظهر المجن ، وكانوا يسبوهم ويهينوهم ولم يتركوا للصلح (أو لحسن العلاقات) مكانا ٠ مـع أن المصريين ذاقوا الأمرين مــن العثمانيين ومن المماليك ورأوا منهـــم مظـالم ومســاوىء يشـيب لهولهـــا الولدان ، ويتحدث بفظائعهـــا الركبان ٠ فيما بعد ، عندما انسحب الفرنسيون ودخلت عســاكر العثمانيين قابلهم المصريون بالبشر والترحـاب وكانت النســاء تزغرد ، كما يقول الجبرتى ، كعادتهم فى توسم الخير من الجديد (مع أن العثمانيين والمماليك وجنودهم ليسوا

جندا عليهم) . وما هى الا فترة قليلة حتى أدرك المصريون سوء فسل أوباش العثمانيين ـ كما يصفهم الجبرتى ـ وغلظة تصرفاتهم ، وشدة طغيانهم ، فتمنوا عودة الحكم الفرنسى .

ما الذى يمكن أن توصف به هذه الصورة ، وما الذى يمكن أن يقال فيها ، غير أن الناس كانوا ، مازلوا ، لا يعقلون الأشياء ولا يدبرون الأعمال ، ولا يحسبون الأقوال . انهم رعناء حمقى ، كريش فى مهب الريح ، يميل فى أى اتجاه ويضيع مع أى رياح . وحتى الآن ، فان الصورة التى رسمها الجبرتى بقلمه تتكرر دائما دون أى تعلم ، وتتوالى أبدا بغير أى تدبر ، وهو حال لابد من وقوعه واستمراره مادام العقل فى الآذان ، والفعل فى اللسان ، والوعى فى اللازمان (أو فى خبر كان) !

(و) ويثبت الجبرتى أنه خلال الهيجانين الذى حدثا ، وقت قيادة نابليون وأثناء قيادة كليبر ، أرسل كل من القائدين رسائل الى المشايخ الذين يتكون منهم الديوان الذى أنشاوه لحكم مصر ، فلم يتلق ردا على رسائله ، مما دعاه الى ضرب الهياج ومناطقه . فلما

وقعت الهزيمة ، هرع الشيوخ الى القـادة الفرنسـيين يعتذرون اليهم ويطلبون منهم السماح •

وان أى شخص فى مصر ، مصرى أو غير مصرى ، لتتكرر معه هذه الصورة نفسها ، اذ ينقلب عليه الناس ان استشعروا فيه ضعفا أو زوال منصب أو ضياع مال، فان عاد قويا الى وضعه الأول ، بادروا بالاعتذار وطلب السماح • فهل لهذا التقلب فى التعـامل اسـم غـير النفاق ؟ وهل زال من مصر هـذا النفـاق ، أم انه داء متمكن يجرى فى الدماء ويسـيل مع كل شربة ماء ؟! ويأخذ صورا متعددة ، بل وتبرره الأمثال الشعبية التى تعتبر أفضل تشخيص اجتماعى Social Identification فتقول : الايد (اليد) اللى ما تقدرشى تقطعها بوسها • اللى يتجـوز أمى أقول له يا عمى • ان كنت فى قوم بيعبدوا عجل حش واديله • فى الوش مراية وفى القفا سلاية •

فهل فى هذا النفاق الضارب ، وفى أرض النفاق (وهو عنوان رواية وفيلم مصريين) يمكن أن يأمن أحد الى مشاعر وفاء ، أو يركن شخص الى مظاهر ولاء ؟

(ز) ويقول الجبرتى انه اثر « الهيجان » الثانى، وبعد أن قضى عليه الجيش الفرنسى ، ثم أعطو الناس

أمانا . اجتمع قائد الجيش بالمشايخ فى اليوم التالى ، فوبخهم واتهمهم بالرياء والنفاق ، وأنهم يظهروا غير ما يبطنون (تقية !!) ، كما أنه لا نفع منهم ولا جدوى فيهم ، ثم فرض عليهم غرامات مالية • فاذا بهم ينهارون ويتمنون لو لم يكونوا شيئا (أى تمنوا العدم) وبال بعضهم على ثيابه •

أفليست هذه صورة حية ، واضحة ظاهرة ، كائنة قائمة ، حتى الآن ، استئساد واستقواء فى حال ، ثم استنعاج واستضعاف فى الحال المخالف ، بغير أى ثبات فى الخلق أو وضوح فى التصرف !؟

(ح) وينقل الجبرتى نص كتاب أرسله الشيخ السادات (أحد كبار المشايخ) الى الوزير العثمانى ، وفيه يقول (السادات) انه نقض عهده مع الفرنسيين ، مع أنه سليل النبوة ، وأطاع العثمانيين فى فجرهم وأعانهم على ظلمهم ، حتى جاهد جنودهم فى الملاهى وأماكن الموبقات ، واستولوا على أموال الناس وطعامهم •

فكيف يمكن أن يعين أحد كبار القوم ظالمين على ظلمهم ويساعد فاسقين على فسقهم ، وهو يعلم ذلك ،

ويعرف أنه ينقض عهدا ينبغي ان يحفظه ؟ أليس هـذا الذى حدث من الشيخ السادات سلوكا عاما ووضعا ممتدا قائما حتى الآن ؟! فقلما يفي واعد بوعده ، أو ينفذ عاقد ما تعاقد عليه ، حتى لتعتبر الوعود لغو حديث، وتعد العقود حبرا على ورق - ومن جانب آخر، فان الطغاة والظالمين والمفسدين ـ حتى الآن ـ يجدون من يبرر لهم طغيانهم أو يساعدهم على الظلم أو يعينهم على الفساد وهو يعلم حقيقة ما يفعل ، لكنها المداهنة والرغبة في نوال حظوة لدى المستبدين ، تعمى البصائر وتغشى الضمائر !

(ط) ويقـــول الجبرتي ان عسكر العثمانيين (الأرناؤوط والتتار وغيرهم) احتكروا البضائع لأنفسهم ، وصاروا يبيعونها الى الناس بأغلى الأثمان هذا فضلا عن أنهم ، ورؤساهم ، كانوا يشاركون التجار والحرفيين في أعمالهم - وهذا الذى حدث منذ قرني مازال يحدث حتى اليوم ، فكثير ما يحتكر بعض مراكز القوى ومحاور السلطة وقوعد النفوذ أقوات الناس وحاجاتهم ، وان تخفوا تحت اسم آخر ، ثم يبيعوها الى الناس بما يشاءون من أسعار - هذا فضلا عن أن نظام مشاركة السلطة للتجار والحرفيين هو أساس الاقطاع

الادارى ، والتزاوج بين السلطة والأعمال (الشغل أى البزينيس Buisiness الذى صار شبه قاعدة عامة فى كثير من النظم فى البلاد العربية كافة ·

(ى) ويصف الجبرتي بمرارة شديدة متاعب الناس مع رجال السلطة للحصول على تأشيرة أو خاتم ، مما يقتضيهم دفع كثير من الرشاوى ، أو ترك مصالحهم نهائيا ليأسهم من الوصول الى العدل والحصول على الحق · وهو وصف لا يحتاج الى أى تعليق ، لأنه حال قائم مستمر يعرفه المصريون جميعا ، ويشكون من الشكوى من الروتين والرشاوى وتعطيل الأعمال ·

ثم ماذا ؟ ان فى مأثوراتنا أن الاعتراف بالحق فضيلة ، وأن الحق أحق أن يتبع ، لكننا مع ذلك لا نحب أن نستمع الى الحق ، أو أن نتبع سبيله ، وانما نقول شيئا ونفعل شيئا آخر · فالقول لدينا منفصل عن العمل تماما ، وبين القول والعمل فصل كبير وبئر عميق ، وهذا فى التقدير السليم أول وأهم سوالبنا ، التى ينبغى أن نلتفت اليها وأن نتغلب عليها · فالمثالب الاجتماعية والسوالب الأخلاقية كالأدواء الجسمية والأمراض البدنية ، اذا ما تم تشخيصها بعلم وأمانة ، وتوصيفها بدقة وصراحة ، أمكن تخطيها بشجاعة

ووضوح • أما ان لم يحدث ذلك ، فسوف تظل أبد الدهر . وهي أدواء متمكنة ، وأمراض متوطنة ، واعراض متزمنة •

في ثقافتنا وتراثنا ايجابيات بغير شك ، لكن كثرة ترديدها والالحاح عليها يغض عن الصواب ويعمى عن الحقيقة • ومن الأصح والأسلم أن تعيد فرز عناصر ثقافتنا ، بوعى وعلم حتى نستبقى الصائب منهـا ونستبعد السالب فيها • مثل هذا العمل يقتضي الصدق ويلتزم الأمانة ، والا أفلت منا زمام أنفسنا وقياد بلادنا •

لقد كانت الحملة الفرنسية بالأمس صدمة حضارية ونحن اليوم في غربة حضارية ، لكنا في الغد سوف نواجه صعقة حضارية ، ما لم نتهيأ بالاصلاح والاستعداد ، الذى ينبغى أن يبدأ بالصدق في القول والصدق في العمل ، أى بالأخلاق والضمائر ، ثم يختط سبيله بالعلم والتقنية •

من يتابع المجلات العلمية العالمية ، والبرامج العلمية في القنوات الفضائية الدولية (مثل برنامج (Sience and Technology في قناة E.N.N * وبرنامج 2000 في قناة Euro news ، وبرنامج Future File

فى قناة CNBC وغيرها) لابد أن يدهش ويذهل من كثرة الاكتشافات التقنية وتنوعها ، وانتشارها ، وهى اكتشافات لا يشترك فيها العرب ولا يسهم المصريون (الا نادرا) • وبعد فترة قليلة ، عشر سنوات على الأكثر ، سوف نفاجأ بأن العالم كله فى الغرب الأدنى والأقصى ، وفى الشرق الأقصى كله ، يتكلم لغة لا نعرفها ولا نفهمها ولا نستطيع التعامل بها ، هى لغة العلم الجديد ولغة التقنية الحديثة • وعند ذلك سوف نلوم كل الناس الا أنفسنا ، ما دمنا لم نغير ما فى نفوسنا من عيوب ولم نبدل ما فى ثقافتنا من عوار • لكن العالم كله سوف يلتفت عنا ويعرض عن صراخنا تماما •• ونكون بذلك مثل النعامة تضع رأسها فى الرمال حتى لا ترى الحقيقة ، الى أن تتمكن منها الحقيقة ، وتصيبها ثم تقضى عليها ، بالصعقة الحضارية •

الفهـــــرس

الموضـوع	الصـفحة

صـدر في هـذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ·
د· عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ على ماهـــر ·
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة ·
د· محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطئ المصرية فى العصور الوسطى ·
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ·
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ صـلاح الدين الأيوبى ·
د· عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ·
د· على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ·
د· محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ·
محمود فوزى ، ١٩٨٧

١١ ــ مائة شخصية مصرية وشخصية •
شكرى الماضى ، ١٩٨٧

١٢ ــ هدى شعراوى وعصر التنوير •
د• نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ــ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية •
د• عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ــ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية •
د• سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ــ المستشرقون والتاريخ الاسلامى •
د• على حسنى الخربوطلى • ١٩٨٨

١٦ ــ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ــ ١٩٥٢) •
د• حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ــ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى •
د• محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ــ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية •
د• على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ــ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين •
د• أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ــ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى •
د• محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ •
د• توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى : نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩ .

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تاليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠ .

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ الاسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور .
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣ .

٦٤ ـ مصر وحقوق الانســـان ، بين الحقيقة والافتراء دراســة
وثائقية ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩١٧)
سهام نصـــار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ المرأة في مصر في العصر الفاطمي
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، في ابريل ١٩٩٣) أعدهـا للنشر
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليـف : وليم الصـــوري ، ترجمة وتعليـق : د. حسن
حبشي ، ١٩٩٣

٦٩ ـ نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ـ اهل الذمة في الاســـلام ،
تأليف : أ. س. ترتون ، ترجمة وتعلبق : د. حسن حبشي،
ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصـــادية لمصر في العصر الفاطمي (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ،
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ اهل الذمة في مصر ، في العصر الفاطمي الأول ،
د. سلام شافعي محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ دور التعليم المصرى فى النضال الوطني (زمن الاحتـلال البريطانى) ،
د. سعيد أسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصــورى ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي ، ١٩٩٤

٧٨ ـ تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دى يونـج ، ترجمة : عبد الحميـد فهمي الجمال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ قنـــاة الســويس والتنافس الاســتعمار الأوربي (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر اكتوبر ،
د٠ رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيـة ،
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢) ،
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصـــادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،
د٠ أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ مذكرات اللورد كليرن ، ج ٢ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،
د٠ عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د٠ نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانســفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦
٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨) ،
د٠ نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦
٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ، ج ٢ ،
د٠ سهير اسكندر ، ١٩٩٦
٩٥ ـ مصر وافريقيا ٠٠ الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراســات الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د٠ عبد العظيم رمضان
٩٦ ـ عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولوم كير ، ترجمة : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو
٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،
د٠ ايمان محمد عبد المنعم عامر
٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د٠ محمد سيد محمد
٩٩ ـ تاريـخ الطب والصــيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،
د٠ سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
أ· د· عبد العزيز صـــالح ، أ· د· جمال مختـــار ،
أ· د· محمد ابراهيم بكر ، أ· د· ابراهيـم نصـحى ،
أ· د· فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ· د· عبد العظيم رمضـــان

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصـير ، اللواء / عبد الحميد كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ ،
د· تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،
د· على بركات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) ،
د· فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ـ ١٩٨٧) ·
د· احمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، ج ٢ ،
د· سليمان صـــالح

١٠٧ ـ الاصولية الاسلامية فى العصر الحديث ،
تاليف : دليب هيرو ، ترجمـة : عبد الحميد فهمى الجمال

١٠٨ ـ مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النقاش

١٠٩ ـ مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النقاش

١١٠ ـ مصادرة الأملاك في الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ١ ،
د. البيومي اسماعيل الشربيني

١١١ ـ مصادرة الأملاك في الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ،
د. البيومي اسماعيل الشربيني

١١٢ ـ اسماعيل باشا صدقي ،
د. محمد محمد الجوادي

١١٣ ـ الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري) ،
د. اسماعيل عز الدين

١١٤ ـ دراسات اجتماعية في تاريخ مصر .
احمد رشـدي صالح

١١٥ ـ مذكراتي في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا

١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
عـلاء الدين وحيـد

١١٧ ـ تاريخ القضـاء في مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى

١١٨ ـ النظم المالية في مصر والشـام زمن سلاطين المماليك .
د. البيومي اسماعيل

١١٩ ـ النقابات في مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصري الحديث
لويس جرجس

١٢١ ـ معركة الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوي

١٢٢ ـ مصر للمصريين ج ٦
سليم خليل النقاش

١٢٣ ـ السيد احمد البدوي
د. سعيد عبد الفتاح عاشور

١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن
د. محمد نعمان جلال

١٢٥ ـ مصر للمصريين ج ٧
سليم خليل النقاش

١٢٦ ـ مصر للمصريين ج ٨
سليم خليل النقاش

١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم

١٢٨ ـ معـارك صـحفية
جمـال بـدوي

١٢٩ ـ الدين العـام (واثـره في تطـور الديـن المصري)
(١٨٧٦ ـ ١٩٤٣)
د. يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين في مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧)
سمير فريد

١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)
تاليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرءوف أحمد عمر

١٣٢ ـ دار المندوب السامي في مصر ج ١ ،
د. ماجدة محمد حمود

١٣٣ ـ دار المندوب السامي في مصر ج ٢ (١٩١٤ ـ ٢٤
د. ماجدة محمد حمود

١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى
مخطوطة « ضيا نامة » للدار ندلى
بقلم/ عزت حسن افندى الدار ندلى
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى

١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية فى ضـــوء وثائـق الجنيزة (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د. محاسن محمد الوقاد

١٣٦ ـ اوراق يوسف صديق
تقديم أ . د . عبد العظيم رمضان

١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د . محمد عبد الغنى الأشقر

١٣٨ ـ الاخـوان المسلمون
وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ـ السيد يوسف

١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين
محمـــد قابيـــل

١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر .
فى النصف الأول من القـرن التـاسع عشر ـ طارق عبد العاطى غنيم .

١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك
لطفى أحمد نصار .

١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ ٤
أحمد شفيق باشا .

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والاول ق.م.
د . منيرة محمد الهمشرى .

١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية
فى عهـد الخـديوى اسمـاعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ـ د. عبد العليم خلاف .

١٥٤ ـ هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الاسلامية فى العصور الوسطى

د. علية عبد السميع الجنزورى

١٥٥ ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر ١٨٠٥ ـ ١٨٨٣

د. عبد الحميد البطريق

١٥٦ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث فى العصر الاسلامى

د. سمير يحيى الجمال

١٥٧ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع فى العصر الاسلامى والحديث

د. سمير يحيى الجمال

١٥٨ ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)

د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجزء الأول

د. محمد فريد حشيش

١٦٠ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) ج ٢

د. محمد فريد حشيش

١٦١ ـ السيف والنار فى السودان تاليف سلاطين باشا

١٦٢ ـ السياسة المصرية تجاه السودان
(١٩٣٦ ـ ١٩٥٣)
د٠ تمام همام تمام

١٦٣ ـ مصر والحملة الفرنسية
المستشار/ محمد سعيد العشماوى

١٦٤ ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والاثار بالمجلس الاعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية وجامعة القاهرة « ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ ») ٠

١٦٥ ـ التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر
سامى سليمان محمد السهام

١٦٦ ـ مذكرات مناضل سياسى
صفحة من تاريخ مصر
السيد يوسف

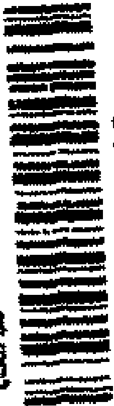
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥١٠٩/١٩٩٩

ISBN — 977 — 01 — 6499 — 2

هذا الكتاب يحمل رؤية تاريخية للثورة الفرنسية أكثر مما يحمل تاريخاً للحملة الفرنسية، فالمستشار محمد سعيد العشماوى مفكر مصرى وليس مؤرخاً، وبالتالى فلا ينبغى للقارئ أن يتوقع قراءة كتاب تاريخ مما تعود أن يقرأه، بمعنى تحقيق تاريخى لأحداث الحملة الفرنسية على مصر، وإنما سيقرأ رؤية مفكر مصرى وتأملاته للحملة الفرنسية، وهو منهج مختلف للكتابة، ولكن له طلاوته وأهميته.

والكتاب بذلك يقدم تحليلاً ممتازاً للمجتمع المصرى بنظرة مفكر، وهو جدير بالقراءة.





مطابع الهيئة المصرية ا

٣٠٠ قرش